الفصل السادس والاربعون بعد المئة

الشعر

الشعر والحكم والكهانة والخطابة وأضرابها ، هي أهم المظاهر التي تحدد لنا معالم العقلية الجاهلية ، وتعطينا فكرة عامة عن العقل الجاهلي .

أما الشعر الجاهلي ، فلم يصل الينا من الجاهلية مدوناً قط ، وانما وصل الينا مدوناً في الاسلام . وأقصد اننا لم نعثر حتى الآن على أي شيء منه مكتوباً بقلم جاهلي ، أو محفوراً على نص جاهلي . وكل ما نحفظه ونعرفه من ذلك الشعر ، هو مما وصل الينا بنقول الاسلاميين .

وللعلماء ، من اسلاميين قدامى ومحدثين ، ومن مستشرقين ، آراء في هـذا الشعر . منهم من يبالغ في اليقين ، فيرى ان كل ما وصل الينا منه صحيح ، ومنهم من يبالـغ في الشك ، فيرى ان أكثر ما وصل هو شعر منتحـل فاسد موضوع ، وضع لأغراض عديدة يذكرونها : دينية وسياسية وجنسية وغير ذلك ، ومنهم من يتوسط فيرى أن فيه الصحيح وفيه الفاسد المدسوس ، وان من الخير البحث فيه من نواحٍ متعددة ودرسه دراسة علمية حديثة ونقده نقداً علمياً لتمييز صحيحه من فاسده ، ولكل فريق حجج وأدلة مدونة ، وكتب أفردوها ، فيها رأيهم وحججهم ، اليها استحسن رجوع من يريد الوقوف على تلك الآراء .

ومن الكتب المؤلفة في الأدب الجاهلي ، واشتهرت خاصة بين أدباء العربيـة بنقد الشعر الجاهلي وبتوجيه الشك الى صحة أكثره ، فأثارت لذلك ضجة كبيرة

كتاب ألفه الدكتور طه حسين في العربية بعنوان : « في الأدب العربي » . وقد ردّ عليه أدباء عديدون في مصر وغيرها من البلاد العربية الأخرى . وقد أوضح الدكتور في كتابه العوامل التي حملته على تكوين رأيه المذكور في الأدب الجاهلي .

وليس مرجع هذا الاختلاف هو في حقيقة وجود شعر جاهلي أصلاً ، أو في عدم وجوده . فوجود شعر للجاهليين ، حقيقة لا يشك فيها أبداً ، لأن الجاهليين هم مثل سائر الناس ، لهم حسّ ولهم شعور ، وما دام الحس موجوداً ، فلا بد أن يظهر على شكل شعر أو نثر . وإنما الاختلاف هو في هذا الشعر المروي لنا ، والمدون في بطون الكتب . هل هو جاهلي حقاً ، أو هو منحول فاسد محمول على الجاهليين ؟ أو وسط بين بين ، وفي كمية الصحيح منه ، بالنسبة الى مقدار الفاسد منه ؟ هذا موضع الاختلاف بين العلماء .

وقد وصف القديس (نيلوس) المتوفى حوالى السنة ٤٣٠ للميلاد غارة بدوية على دير سيناء ، وقعت سنة ٤١٠ م ، وتحدث عن تغني الأعراب بأشعارهم وهم يستقون الماء[1] . كما أشار المؤرخ (سوزيموس) الى تغني العرب بأشعارهم وذلك في المعارك التي وقعت بينهم وبين الروم في حوالى سنة (٤٤٠ م) ، وهي أغانٍ تشبه الأشعار التي كان يتغنى بها الأعراب في حروبهم وغزواتهم ، مثل يوم ذي قار[2] ، والمعارك التي وقعت في فتوح العراق والشأم . ولا زال الأعراب يترنمون بالشعر عند غزوهم بعضهم بعضاً،لأن الشعر عندهم سلاح مهم من أسلحة القتال .

ثم إن شعر المخضرمين ، هو في حد ذاته دليل على وجود شعر سابق جاهلي، فشعر مثل هذا لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة من غير شعر سابق ومن غير شعراء ماضين مهدوا الجادة لمن جاء بعدهم ووضعوا لهم البحور المعروفة ، وقد وجدها المخضرمون ، فنظموا عليها .

وفي القرآن الكريم سورة تسمى (سورة الشعراء)[3] ، وهي تدل على كثرة الشعراء ، وعلى تأثر الناس بهم ، وعلى تأثير شعرهم في النفوس وتلاعبه بأفئدة

---

١ غرونباوم (١٣٣) .
٢ غروبناوم (١٣٤) ، Die Araber, II, S. 330.
٣ رقم السورة (٢٦) .

الجاهليين . وتجاسر بعض الكفار على الرسول ، فوصفوه بأنه شاعر . ووصفه بهذه الصفة دليل على ما كان للشعر من أثر في نفوس القوم . وقد ورد في الحديث : ان الرسول قال : « إن من البيان لسحراً ، وان من الشعر لحكماً » ، أو ان من الشعر لحكمة[1] . وفي الأخبار انه كان يرفع أناساً ويُذل آخرين ، وان من الناس من كان يشتري ألسنة الشعراء . وورد في الحديث ، ان الرسول ذكر الشعر فقال : « إن من الشعر لحكمة ، فإذا ألْبَسَ عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإنه عربي »[2] . ووردت عنه أحاديث أخرى في حق الشعر[3] .

وورد في خبر آخر ان (العلاء بن الحضرمي) ، لما وفد على رسول الله ، قال له الرسول : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقرأ سورة عبس ، ثم زاد فيها من عنده : وهو الذي أخرج من الحبلى نسمة تسعى بين شراسيف وحشى ، فقال رسول الله كف فإن السورة كافية ، ثم قال : أتقول شيئاً من الشعر ؟ فأنشده:

وحيّ ذوي الأضغان تسبِ قلوبهم ... تحيتك الأدنى فقد يدبغ النعل
فإن دحسوا بالكره فاعفُ تكرماً ... وإن أخنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذي يؤذيك منه اسماعه ... وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي : إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكماً[4] .

وورد أن الرسول كان يسأل الصحابة أن يسمعوه شعراً ، سأل مرة (الشريد ابن سويد) الثقفي أن ينشده شيئاً من شعر أمية بن أبي الصلت ، فأنشده مائة بيت ، فقال الرسول : كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم ، أو ان كاد ليسلم[5]. وكان الرسول يقول : أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شيء

---

١ بلوغ الارب (٣/١٣٤) .
٢ اللسان (٤/٤١٠) ، (شعر) ، العمدة (ص ٢٧) ، (اذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في الشعر) ، مجالس ثعلب (٣١٧) .
٣ العمدة (ص ٢٧) .
٤ بلوغ الارب (٣/١٣٣ وما بعدها) ، (ان من الشعر حكما ، وان من البيان سحرا) وفي هذه الابيات روايات متباينة ، عيون الاخبار (٢/١٨) ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، كنز العمال (٢/١٧٨) .
٥ ارشاد الساري (٩/١٠٠ وما بعدها) ، الاصابة (٢/١٤٦) ، (رقم ٣٨٩٢) ، المزهر (٢/٣٠٩) ، (مائة قافية) ، ابن سعد ، (٥/٣٧٦) . صحيح مسلم (٧/٤٨) ، (كتاب الشعر) .

ما خلا الله باطل ، أو ان أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيـد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل[1] .

وورد أنه استشهد ببيت شعر لطرفة بن العبد ، هو :

ستبدي لك الأيام مـا كنت جاهلاً ويـأتيك بالأخبـار من لم تزود[2]

وورد أنه جلس في مجلس من الخزرج ، فاستنشدهم شعر : (قيس بن الخطيم) ، فأنشدوه بعض شعره[3] . وللرواة أخبار عديـدة تشير الى سماع الرسول الشعر والى وقوفه عليه وعلمه به ، وأنه كان يكلف الصحابة بأن ينشدوه من شعر الشعراء ، وذكر أنه نهى من رواية رثاء (أمية بن أبـي الصلت) قتلى قريش في معركـة بدر ، لما فيها من رثاء لمشركين ومن تحريض عـلى الإسلام[4] . وورد أن الشاعر (العباس بن مرداس) ، شهد مع النبي حنيناً على فرسه (العُبيد) ، فأعطـاه النبي أربع قلايص ، فقال :

أتجعل نهبي ونهب العبيـد بين عيينـة والأقرع
وكانت نهاباً تلافيتها بكري على المهر في الأجرع

فقال الرسول : اقطعوا عنا لسانه[5] . ولسانه هو شعره .

وروي عن (عمر) قوله : « نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم ، مع ما للشعر من عظم المزية ، وشرف الأبية ، وعزّ الأنفة ، وسلطان القدرة[6] » .

وقديماً قال ابن عباس : « إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في

---

١ ارشاد الساري (١٠١/٩ وما بعدها) ، صحيح مسلم (٤٩/٧) ، (كتاب الشعر)
٢ معجم الشعراء (٢٠٢) .
٣ الاغاني (٧/٣) .
٤ الاغاني (١٢٢/٤ وما بعدها) ، الفائق (٥٢/٣) ، الاغاني (٢٤٣/٨) ، ابـن سعد (٣٧٦/٥) ، المزهر (٣٠٩/٢) .
٥ الشعر والشعراء (٦٣٤/٢) ، الاشتقاق (١٨٨) .
٦ بلوغ الارب (٨٢/٣) .

الشعر ، فإنه ديوان العرب »[1] . وقيل إنه — أي ابن عباس — ما فسر آية من كتاب الله ، إلا نزع فيها بيتاً من الشعر . وروي أن غيره كان يحفظ شيئاً وافراً من الشعر ، الشعر المروي عن أناس عاشوا قبل الاسلام وأناس أدركوا الاسلام، وأنهم كانوا يتداولونه ويتطارحونه ويحفظونه لصلته بكل فرد منهم . ففيه أخبار القبائل وأيام العرب وما قيل فيهم من مدح أو ذم ، والحق أننا بفضل هذا الشعر حصلنا على كثير من هذا القصص المنسوب الى أهل الجاهلية ، وبفضله عرفنا أخبار الشعراء والقبائل والأيام والحروب ، فهو كما قلت في الجزء الأول من هذا الكتاب مورد مهم رئيسي يرد منه المؤرخ في تدوينه تأريخ العرب قبل الإسلام .

ونحن لا نكاد نقرأ قصة من قصص (أيام العرب) ، إلا ونجد فيها شعراً، ينسب الى بطل من الأبطال الذين ساهموا فيها ، أو من شاعر يذكر قومه أو خصوم قومه أو خصومه بالأيام التي انتصروا فيها على خصومهم . وقد ساعد هذا الشعر على تثبيت تلك الأيام في ذاكرة رواتها ، حتى وصلت الى أيام التدوين فدونت ، على نحو ما نقرأها في هذا اليوم .

ثم ان كتب الأدب بأنواعها مملوءة بأخبار المساجلات والمطارحات التي وقعت بين الشعراء قبيل الاسلام وفي أيام الرسول والخلفاء. وقد رويت فيها أشعار وقصائد لشعراء جاهليين ، ولشعراء مخضرمين . وقد تحدث معظم المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام عن ذكرياتهم في الجاهلية ، ورووا ما نظموه فيها من أشعار وما وعوه من المناسبات التي نظموا فيها . ثم ان هذه الكتب مملوءة أيضاً بأخبار مجالس سمر تناولت الحوادث والأيام والشعر والشعراء ، وفيها نقد ومفاضلات لما ذكر في تلك المجالس من شعر . وقد روي : ان الرسول كان يجالس أصحابه ويتحدث معهم ويصغي اليهم ، ويستمع الى ما يروونه وما يتذاكرونه من الشعر[2]. وروي : ان الحطيئة ، وهو شاعر معروف ، كان يتذاكر الشعراء ويحفظ أشعارهم[3].

وقيل للحسن البصري : « أكان أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

---

١ المزهر (٢/٤٧٠) ، الاخبار الطوال (٣٣٢) ، طبقات الشعراء ، للجمحي (ص ١٠) بلوغ الارب (٣/٨٢) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٣٦) ، العمدة (٣٠) ، التبريزي ، شرح الحماسة (١ وما بعدها) .

٢ الاغاني (١٥/٥٥) .

٣ الاغاني (١٥/٩٤) .

يمزحون ؟ قال : نعم ويتقارضون ، أي يقولون القريض وينشدونه . والقريض الشعر »[1] . وروي أن أصحاب رسول الله ، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم ، وأن رسول الله كان يجالسهم في المسجد ، وهم يتناشدون الشعر وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم[2] . وعن (أبي سلمة) : « لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متحزقين ولا متماوتين، كانوا يتناشدون الأشعار، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون »[3] .

وقد ذُكر أن من الأعاجم من تعلم الشعر العربي ورواه وعشقه ، فزعم (ابن الكلبي) مثلاً أن (خُرَّخسرة) ، وهو ابن (المروزان) ، كان قد تعرب ، أعجبته العربية فتعلمها وروى الشعر ، وكان والياً على اليمن في عهد (كسرى) ، ثم بلغ (كسرى) تعربه ، وروايته الشعر ، وتأدبه بأدب العرب، فعزله ، وولى باذان[4] .

وللشعر أثر خطير في نفوس العرب ، كان يهز عواطفهم هزاً ، ويفعل فيهم فعل السحر ، فلا عجب اذا ما قرن (رؤبة) الشعر بالسحر ، وجعله مثله في التأثير لتلك العلة :

لقد خشيتُ أن تكون ساحرا راوية مَرّا ومَرّا شاعرا[5]

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم اليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم،فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر[6] .

وقد بقي أثر الشعر هذا في نفوس الناس حتى بعد زوال الجاهلية ودخول الناس في الاسلام . فكان مدح الشاعر لقوم ، من المآثر والمفاخر ، وكان ذمه

---

١ اللسان (٧/٢١٩) ، الفائق (٢/٣٣٩) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٢ ص ٩٥ وما بعدها) .
٣ الفائق (١/٢٥٧) .
٤ الطبري (٢/٢١٥) ، (دار المعارف) .
٥ العمدة (١/٢٧) .
٦ البيان والتبيين (٤/٨٣) .

مما يشين ويسيء الى المهجو . فلما هجا (جرير) (بني نمير) بقوله :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

أخذ بنو نمير ينتسبون الى (عامر بن صعصعة) ، ويتجاوزون أباهم نميراً الى أبيه ، هرباً من ذكر (نمير) وفراراً مما وسم به من الفضيحة والوصمة . مع انهم كانوا قبل ذلك اذا سئل أحدهم ممن الرجل فخم لفظه ومدّ صوته وقال : من بني نمير ، وكانوا جمرة من جمرات العرب . وكان أحدهم اذا رأى نميرياً وأراد نبزه والإساءة اليه قال له : غمض وإلا جاءك ما تكره ، وهو انشاد هذا البيت[1] . وصار الرجل من بني نمير اذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني عامر[2] !

قال الجاحظ : « وفي نمير شرف كثير. وهل أهلك عنزة ، وجرماً ، وعُكلاً ، وسلولَ ، وباهلة ، وغنياً ، إلا الهجاء ؟!

وهذه قبائل فيها فضلٌ كثيرٌ وبعض النقص ، فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء . وهل فضح الحبطات ، مع شرف حسكة بن عتاب ، وعبّاد بن الحصين وولده ، إلا قول الشاعر :

رأيت الحُمر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم[3]

وقد هُجيت فزارة بأكل أير الحمار ، وبكثرة شعر القفا . وكان (حذف) الفزارى قد أطعم جُردان الحمار ، فقتل الذي أطعمه . وقال : طاح مرقــه ، فذهبت مثلاً . ففزارة تعير بذلك الى اليوم . قال الشاعر :

إنّ بني فزارة بن ذبيــان قد سبقوا الناس بأكل الجُردان

وقال آخر :

أصيحانيــة عُلّت بزُبـد أحب اليك أم أير الحمار[4] ؟

---

١ الخزانة (١/٣٥ وما بعدها) ، (بولاق) ، البيان والتبيين (٤/٣٥) .
٢ البيان والتبيين (٤/٣٥ ، ٣٨) .
٣ البيان والتبيين (٤/٣٦ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (١/١٧٣ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٤/٣٨ وما بعدها) ، الخزانة (١/٣٩٥) ، سمط اللآلئ (٨٦٠) .

وبين الشعر والسحر صلة ، حتى ذهب بعض الباحثين في الشعر الى أن الشعر هو فن من الفنون التي كـــان يمارسها السحرة في التأثير في مشاعر الناس ، إذ كانوا يتخذونه وسيلة من وسائل التأثير في النفوس ، لما يستعملونه فيه من كلام مؤثر ساحر يترك أثراً خطيراً في نفس سامعه . ولهذا عدّوا السحرة في جملة أوائل من كان ينظم الشعر من القدماء ، كما ذهب بعض الباحثين الى أن الشعراء كانوا (أهل المعرفة) والفهم ، لما كان لهم من ذكاء وصفاء ذهن في فهم تجـــارب الحياة ، وفي نظم خلاصة تلك التجارب على شكل علم أو حكم تفيد في التهذيب وفي التوجيه وفي وعظ الناس،ولهذا كان لهم رأي في السياسة في السلم وفي الحرب.

وفي كتب الأدب والأخبار أمثلة كثيرة عن أثر الشعر في القبائل وفي الأشخاص من مدح وذمّ ، يرينا كيف كان العرب يتأثرون به ، وكيف كان يلعب دوراً خطيراً في حياتهم ، والعرب قوم عاطفيون ، تلعب العاطفة دوراً خطيراً في حياتهم، وما الشعر إلا نتيجة لهـــذا الطبع المتوارث في العربي . وقد كان أثر الشعر في المغازي وفي الحروب أثر السيف في الخصوم ، يحرض المقاتلين على الاستبسال في القتال . ولما وقعت الوقائع بين المسلمين والفرس ، لعب الشعر والنثر دوراً خطيراً فيها ، ففي يوم (أرماث) مثلاً ، أرسل سعد الى قادة الكلام ، من رجـــال النثر والشعر ، يدعوهم الى استخدام سلاحهم في هذه المعارك ، فكان ممن حضر عنده : (طليحـــة) ، و (قيس بن هبيرة) الأسدي ، و (حذيفـــة) ، و (غالب) ، و (عمرو بن معديكرب) ، و (ابن الهـــذيل) الأسدي ، و (عاصم بن عمرو) ، و (ربيع بن البلاد) السعدي ، و (ربعي بن عامر) وهم من الخطباء ، و (الشماخ) ، و (الحطيئـــة) ، (أوس بن مغراء) ، و (عبدة بن الطيب) وأمثالهم ، وهم من الشعراء ، فلما تجمعوا ، قـــال لهم (سعد) : « قوموا في الناس بما يحقّ عليكم ويحق عليهم ، عند مواطن البأس، فإنكم من العرب بالمكـــان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس ، فذكروهم وحرضوهم على القتال»[1]. فالشعر سلاح ماضٍ عند العرب ، مثل الأسلحة الأخرى وربما كان أمضى منها أثراً في نفوسهم لما كان يفعله فيهم ، وكذلك النثر من أثر في النفـــوس يحملهم

---

١ الطبري (٣/٥٣٣) .

على الإقدام وعدم التهيب من الموت .

ونحن لا نعرف حرباً أو غزواً وقع للعرب ، ثم لم يقترن خبره بشعر أو بأبيات منه ، فقد كان المحاربون ، يحاربون خصومهم بألسنتهم وبسيوفهم وبسهامهم ورماحهم في الوقت نفسه ، وقد رأينا أنه قد كان للشعر الفضل الأكبر في كثير من الأحايين في حفظ أخبار الحروب وبقاء ذكرها الى هذا اليوم . ونستطيع القول بأن قسطاً كبيراً من الشعر الجاهلي ، هو من شعر القتال . ولذلك نستطيع جعله صنفاً قائماً بذاته نسميه شعر القتال والحروب .

ومن هذا الأثر الذي كان يعرفه الشعراء حق المعرفة ، كانوا يستعلون ويترفعون به عن غيرهم ، كتب (هوذة بن عليّ) الحنفي ، الى النبي يجيبه على رسالته التي أرسلها اليه : « ما أحسن ما تدعو اليه واجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكانـي ، فاجعل لي بعض الأمـر أتبعك »[1] ، فهو شاعر قومه وخطيبهم ، وله مكانة في العرب ، فهو يرى ان يميز عن غيره بميزات تمنح له، وكان الشعراء يمنّون على قومهم بأنهم ألسنتهم المخرسة الناطقة المهاجمة المدافعة ، فهم من الطبقة المثقفة الممتازة التي حظيت بالتقدير ونالت الاحترام ، بسبب قدرة اللسان ، وأثر الشعر في الناس .

ولا زال الشاعر ينال مكانة محترمة عند أهل الحضر وعند أهـل الوبر ، فهو لسان القبيلة حتى اليوم ، يدافع عنها ، ويهجو أعداءها ، ويردّ على شعراءها ، ويشيد بفعال قومه . وللهجاء عندهم مكانة ، إلا انها أخذت تتزلزل عن مكانها، بفعل التحضر الذي أخذ يغزو البوادي ، وتغير العقلية ، وعدم الاهتمام بالقيـل والقال ، مما أثر على مكانة الشعر والشاعر أيضاً ، فلم يعد النـاس يخشون لسان الشاعر ، كما كانوا يخشونه أيام الجاهلية ، يوم كانوا يسترضون الأعشى والحطيئة، خوفاً من لسانيهما السليطين .

ويطلق على الشعر الذي قيل قبل الاسلام : الشعر الجاهلي، لأنه قيل في الجاهلية التي شرحنا معناها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وأصحابه كلهم ممن عاشوا وماتوا قبل الاسلام . أما الذين أدركوا الاسلام وأسلموا ، فهم الشعراء المخضرمون

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٢) ، (ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل يكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) .

لأنهم أدركوا عهدين ، فعاشوا ردحاً من عمرهم في الجاهلية، وقضوا البقية الباقية من حياتهم في الاسلام .

واذا قلنا الشعر الجاهلي ، أو شعر الجاهليين ، فلا نريد أو يريد أحد منا الغض من شأنه ، أو الحط من قدره ، فإننا على العكس ، نجد علماء الشعر والأدب ، يرفعون من قدره ، ويرون انه الأوج الذي بلغه العرب في الشعر ، ولا سيما الشعر المختار منه مثل المعلقات ، فقد بلغ القمة في نظرهم ، وقد بلغ من تقدير بعضهم للشعر الجاهلي ، انهم كانوا « أحياناً يذهبون بعيداً في تدقيقهم الى حد التهوين من قيمة شاعر لا يمكن إنكار تفوقه ، لمجرد أن ولادته كانت بعد ظهور الاسلام »[1] .

وروي أن عمر قال : « الشعر علم قوم لم يكن لهم علمٌ أعلم منه » وأنه كتب الى (أبي موسى الأشعري) : « مُر مَنْ قِبَلَك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب »[2] . ولقد قال الجاحظ : « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى،وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أن الشعر يُفيد فضيلة البيان ، على الشاعر الراغب ، والمادح ، وفضيلة المأثرة ، على السيد المرغوب اليه ، والممدوح به »[3] . وقال العسكري : « لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها ، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها »[4] ، والشعر هو ديوان تسجيل من لا تسجيل له ، لجأت اليه الشعوب القديمة حين لم تعرف الكتابة ، ليقوم مقام الكتابة في تخليد المآثر والأحداث وما يستجد لها من أمور عظام ، بما فيه من أثر على القلب ، ومن نغم يساعد على الحفظ ، فقام الشعر عند العرب مقام الكتابة ، قبل أن تتفشى الكتابة بينهم[5] .

والواقع ان هذا الشعر الجاهلي قد أفاد المؤرخ الباحث في تأريخ الجاهلية فائدة

---

١ بروكلمن (١/٣٦) .
٢ العمدة (٢٨) .
٣ الحيوان (١/٧٢) ، (عبد السلام محمد هارون) ، المحاسن والاضداد (٣) .
٤ كتاب الصناعتين (١٠٤) .
٥ كارلو نالينو (٩٥ وما بعدها) ،

لا تقدر بثمن ، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التأريخية على فائدته من الوجهة الأدبية ، لأنه حوى أموراً مهمة من أحداث العرب الجاهليين ، لم يكن في وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر[1] .

ولكن كثيراً من هذا التراث الذي أريد تخليد عمل العرب به قد ضاع ، قبل الإسلام ، بسبب عدم تدوينه وتخليده في كتاب واعتماد الناس في روايته على الحافظة وحدها ، والحافظة لا تحفظ المحفوظ لأمد طويل ، فضاع منه ما ضاع، ووصل بعض منه بصورة يرتاب منها ، وآفة كل ذلك هو المرض الذي يصيب الذاكرة : مرض النسيان . « قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري ؛ فالكتاب أحب إليّ من الحفظ . لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناسَ ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »[2] .

والشعراء الجاهليون كثيرون ، ونجد في كتب اللغة والمعاجم ، أسماء شعراء ، لم يرد لهم خبر في موارد أخرى ، ذكروا لمناسبة الاستشهاد بشعرهم ، ونجد في كتب السير والرجال أسماء رجال لهم شعر ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر . قال (ابن قتيبة) : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام،أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم ؛ واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[3] .

وأنت اذا قرأت بعض الكتب مثل كتاب : (الاشتقاق) ، و (المحبر) ، وكتب المجالس والأمالي والشواهد ، تجد أمامك أسماء عدد كثير من الشعراء الجاهليين ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر الجاهلي ، ولم يحفل بهم علماء الشعر مع انهم كانوا في أيامهم من الشعراء المعروفين ، وقد نص على انهم كانوا من الشعراء .

---

١ Charles James Lyall, Ancient Arabian Poetry, London, 1930, p. Introduction.

٢ الحيوان (١/٤١) ، (نعت الكتاب) .

٣ الشعر والشعراء (١/٨) .

ولا أجد في كلام قدماء العلماء القائل ان الذي وصل الينا من أمر الشعر الجاهلي والشعراء الجاهليين ، هو قليل جداً من كثير جداً ، وأن الذي فات عن علم العلماء من أمر الشعراء الجاهليين أكثر بكثير مما بقي ، أية مبالغة أو تهويل ، لأننا نجد في الموارد التي تتحدث عن الصحابة أو عن الأخبار ، أسماء رجال كانوا شعراء، لا نجد لها وجوداً في كتب الشعر ، ثم ان علماء الشعر أنفسهم يعترفون في كتبهم ودفاترهم ، انهم لم يدونوا من أسماء الشعراء إلا من اشتهر أمره وعرف بغزارة شعره ، أما من كان دون هؤلاء ، فإنهم لم يتحرشوا بهم ، إذ لو تعرضوا بهم لاحتاجوا الى تدوين كتب ضخمة في الشعر والشعراء. أضف الى ذلك موت ذكر كثير من الشعراء ، بسبب عدم وجود التدوين قبل أيام التدوين وعجز الذاكرة عن المحافظة على أسماء الشعراء وعلى شعرهم الى أمد طويل . ثم ان الشعر سليقة عند العرب ، وبديهة ، وقلما نقرأ اسم رجل من أهل الجاهلية ، إلا وقد نسب له أهل الأخبار البيت أو البيتين ، أو أكثر من ذلك من الشعر .

ونحن لا نذكر هنا من الشعراء إلا من نبه منهم،وترك أثراً في الأدب العربي الى يومنا هذا .

وقد جرت العادة بأن يدرس الشعر الجاهلي على أسلوب الجادة القديمة ، بالاعتماد على الروايات المدوّنة عنه في الموارد الإسلامية القديمة ، وهي روايات لاقت رواجاً كبيراً بين المعنيين في الشعر الجاهلي ، حتى صارت في درجة القضايا البديهية المسلم بصحتها ، مع أنها في الواقع أخبار آحاد ، وردت في كتب اسلامية قديمة نقلها عنها المؤلفون المتأخرون عن المؤلفين القدماء . مع أن الصحيح هو في وجوب درس الشعر الجاهلي ، على ضوء شعر المخضرمين والشعراء الاسلاميين الذين عاشوا في صدر الاسلام ، وعلى ضوء الدراسات المعروفة عن الشعر عند الساميين ، مثل شعر السريان الذي يأخذ أيضاً بالوزن والقافية وله مصطلحات قديمة في الشعر تعود الى ما قبل الاسلام ، ثم الشعر العبراني والشعر البابلي وشعر بقية الساميين .

وفي دراسة شعر القبائل الحاضرة المنزوية في جزيرة العرب ، فائدة كبيرة في تشخيص الشعر الجاهلي ، لأنها — ولا سيما القبائل القابعة في العربية الجنوبية — لا زالت تنظم الشعر متأثرة بالقوالب القديمة وببحور جاهلية لم يحفل بها (الخليل) أو أنه لم يقف عليها ، ففات أمرها على العلماء ، وعدت من الشعر العامي المبتذل .

الذي لا يليق بالعالم المتزن أن يحفل به . وقد تفيدنا دراسة شعر القبائل العربية ، الناطقة بلهجات بعيدة عن عربيتنا بعض البعد ، فائدة كبيرة في الحكم على طبيعة ونوع الشعر عند العرب الجنوبيين قبل الاسلام ، فألسنة هذه القبائل هي من وحي الألسنة العربية الجنوبية الجاهلية ، ونظم الشعر بها بأسلوب خاص وببحور متميزة ، هو دليل قاطع على وجود الشعر عند العرب الجنوبيين ، وهو شعر لا نعرف اليوم من أمره أي شيء ، لعدم وصول نماذج مدوّنة منه الينا حتى الآن، ولعدم اهتمام العلماء القدامى به ، لاختلافه عن عربية القرآن الكريم ، وفي الشعر اليماني القديم الذي نجد نماذج منه في المؤلفات اليمانية ، مثل مؤلفات (الهمداني) ، فائدة في تشخيص الشعر اليماني الجاهلي ، وإن كان هذا الشعر قد صيغ وفقاً للشعر العربي القرآني ، بفعل دخول أهل العربية الجنوبية في الاسلام ، وأخذهم بلغة القرآن الكريم .

ولا استبعد احتمال ترك علماء الشعر واللغة كثيراً من الشعر الجاهلي ، لأنه شعر لم ينظم وفق عربية القرآن الكريم أو وفق البحور (الكلاسيكية) المعروفة التي اعتبرت الصور الرفيعة لبحور الشعر العربي الصحيح ، نبذوه لأنه كان في أعينهم من الشعر العامي المبتذل الذي لا يليق بالعالم المدقق توجيه عنايته اليه ، على نحو ما فعلوه بالنسبة الى اللهجات العربية الأخرى التي كانت تختلف عن العربية المألوفة التي أخذوها من أفواه القبائل التي اعتبروا لسانها هو اللسان العربي الفصيح ، وأما ما سواها فألسنة رديئة لا يؤخذ بها ولا يحتج بما ورد فيها من نثر أو نظم .

خبر شعراء الجاهلية :

وقد حصلنا على أسماء شعراء الجاهلية من الموارد الاسلامية ، فقد ذكرتْ ان النصوص الجاهلية لم تتعرض لأمر الشعر الجاهلي ولا للشعراء الجاهليين . ونجد أسماء هؤلاء الشعراء في مختلف الموارد ، في كتب الأدب وفي ضمنها دواوين الشعر ، وفي كتب النثر الباحثة عن الشعر ، وفي كتب التفسير والحديث واللغة والمعاجم ، بل وفي الشعر الجاهلي كذلك ، إذ ذكر بعض اسماء الشعراء. ونجد في شعر بعض الشعراء الذين ظهروا في العصر الأموي أسماء شعراء جاهليين ، فنجد في شعر للفرزدق أسماء شعراء جاهليين ، إذ يقول :

وهبَ القصائد لي النوابغُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول
والفحل علقمةُ الـذي كانت له حلل الملوك كلامه لا ينحل
وأخو بني قيسٍ وهن قتلنـه ومهلهل الشعراء ذاك الأول
والأعشيـان كلاهمـا ومرقش وأخو قضاعة قوله يتمثـل
وأخو بني أسدٍ عبيدٌ إذ مضى وأبو دُواد قولـه يتنخـل
وابنا أبـي سلمى زهير وابنه وابن الفريعة حين جدّ المقول
والجعفـري وكان بشر قبلـه لي من قصائده الكتاب المجمل
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً كالسم خالط جانبيه الحنظل
والحارثي أخو الحِماس ورثته صدعاً كما صدع الصفاة المعول[1]

ونجد في شعر (جرير) الذي نقض على الفرزدق قصيدته المذكورة ، وفي شعر (سراقة) البارقي ، ذكراً لأسماء بعض الشعراء الجاهليين إذ يقول :

ولقد أصبت من القريض طريقةً أعيت مصادرها قرين مُهلهل
بعد امرىء القيس المُنوّه باسمه أيام يَهْذي بالدخول فحومل
وأبو دُواد كان شاعر أمةٍ أفلَتْ نجومهم ولمّـا يأفل
وأبو ذؤيب قد أذل صعابـه لا ينصبنّك رابض لم يذلل
وأرادهـا حسان يوم تعرضت بردى يصفق بالرحيق السلسل
ثم ابنه من بعـده فتمنعت وإخالُ أنّ قرينه لم يخذل
وبنو أبـي سُلمى يقصر سعيهم عنّا كما قصرت ذراعاً جَرول
وأبو بصير ثم لم يُبصر بها إذ حلّ من وادى القريض بمحفل
واذكر لبيداً في الفحول وحاتماً يلومك الشعراء إن لم تفعل
ومُعقّرا فاذكر وإن ألوى به ريب المنون وطائر بالأخيل
وأميّـة البحر الـذي في شعره حكم كوحي في الزبور مُفصل
واليذمري عـلى تقادم عهـده ممن قضيتُ له قضاء الفيصل

---

١ ديوان الفرزدق (٧٢٠) ، النقائض (١/١٨٩ وما بعدها) .

واقذف أبا الطمحان وسط خوانهم وابن الطرامة شاعر لم يُجهل
لا والذي حجت قريش بيته لو شئت إذ حدثتكم لم آثل
ما نال بحري منهم من شاعرٍ ممن سمعت به ولا مستعجل[1]

وجمع رواة الشعر شعر الشعراء الجاهليين وأخبارهم من موارد متعددة ، من الشعراء أنفسهم ، مثل الحطيئة الذي أدرك الاسلام ، ومثل حسان وبقية الشعراء المخضرمين ، فقد أمدّوا الخلفاء وعشاق الشعر بأخبار من تقدم عليهم من الشعراء، وبما حفظوه من شعرهم ، وبما استحسنوه من أشعارهم ، كما موّنوهم بأخبارهم التي بقيت عالقة في أذهانهم عن الجاهلية ، وعن أيامهم في الإسلام . كما جمعوا أخبارهم من أبنـاء الشعراء الجاهليين ومن ذوي رحمهم وآلهم ، ونجد في كتب الأخبار والأدب أخباراً كثيرة من شعراء جاهليين ، نقلها الرواة من أبناء أولئك الشعراء ، أو من ذوي قرابتهم ، فقد جاء قسط كبير من شعر الشاعـر (تميم ابن مقبل) عن ابنته أم شريك ، وجاء جزء من شعر (حـاتم) وأخباره عن ابنه (عدي)[2] .

وأخذ الرواة شعر الشعراء الجاهليين من قبائلهم كذلك ، فقد كان في القبيلة من يحفظ شعر شعرائها أو شعر البارزين منهم . وقد رأينا كيف استعزت تغلب بقصيدة (عمرو بن كلثوم) فكانت ترددها دوماً حتى عيبت على ذلك[3] ، وكان في القبائل الأخرى من حفظ شعر شعرائها ، ونجد كتب الأدب والأخبار تنص على أسمائهم ، فتذكر اسم الشخص ، وتنص على اسم قبيلته ، وقد تذكر جملاً مثل « سمع أشياخاً من طيء »[4] ، أو « حدثني الطائيون »[5] ، وأمثال ذلك ، من جمل تنص عـلى اسم المورد الذي استقى منه الرواية خبره أو شعر الشاعـر من القبيلة .

ونجد في كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سـلام الجمحي (٢٣١هـ) ، وفي

---

١ ديوان سراقة (٦٤ وما بعدها) .
٢ ديوان حاتم (٣١) .
٣ الاغاني (٥٤/١١) .
٤ المعمرون (٧٢) .
٥ ديوان حاتم (٣٠) .

كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، أسماء شعراء جاهليين ، وقد أخذا علمها بهم ممن تقـدم عليهم فألف قبلهم في موضوع الشعر والشعراء ، ودوّن (اليعقوبي) في تأريخه جريدة بأسماء شعراء العرب ، وقد جعل أولهم (امرىء القيس) ، وذكر (النابغة) الذبياني بعده ، وانتهى بالمخضرمين[1] ، ولكنـه لم ينص على اسم المورد الذي أخذ تلك الأسماء منه .

ولا نجد بين أسماء الشعراء الجاهليين اسم شاعر واحد نظـم شعره وعاش في العربية الجنوبية أو نظم بلهجة متأثرة باللهجات العربية الجنوبية،فأكثر من ذكروهم من الشعراء انما هم من الشعراء الذين قضوا أكثر حياتهم خارج العربية الجنوبية، وقد كان في هذه العربية شعراء ولا بد ، فليس من المعقول خلوها من الشعـر والشعراء ، ولكن علماء العربية لم يعتنوا إلا بشعراء القبائل التي احتكوا بها والتي أخذوا العربية عنها ، والتي اعتبروا لسانها من أفصح ألسنة العرب ، فضاع بسبب ذلك شعر القبائل التي كانت بعيدة عنهم أو التي كان لسانها بعيداً بعض البعد عن العربية التي ارتضوها والتي نزل بها القرآن الكريم .

ولا نجد في الشعر الجاهلي الواصل الينا شعراً نظم في أغراض دينيـة وثنية ، أي في عبادات القوم قبل الاسلام ، اللهم إلا ما نسب الى بعض الشعراء الأحناف من شعر فيـه تحنف ، وإلا ما نسب الى بعض آخر من شعر فيه اشارات عابرة الى عقائد يهودية أو نصرانية . أما شعر وثني خالص، من شعر فيه ترنيم بالأصنام والأوثان ، وتحميد لها وتقديس ، أو وصف لطقوس دينية وثنية ، فهو شعر لم يصل الينا منه شيء ، وسبب عدم وصوله الينا هو الاسلام ، الذي اجتث كـل ما يمت الى الوثنية بصلة قريبة ، وقضى عليه ، فامتنع المسلمون من روايـة هذا النوع من الشعر .

الشاعر :

والشاعر متعاطي الشعر ومحترفه ومن يقوله ، أو يكثر القول منه . ذكر علماء اللغة أنه إنما سمي شاعراً ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره ، أي يعلم ، أو لفطنته[2].

---

١ اليعقوبي (١/ ٢٣٠ وما بعدها) ، (شعراء العرب) .
٢ تاج العروس (٣/ ٣٠١) ، (شعر) ، العمدة (١/ ١١٦) .

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

ومن هنا قال البعض ان الشعراء في الجاهلية كانوا أهل المعرفة ، يعنون أنهم كانوا من أثقف أهل زمانهم ، وأنهم كانوا على مستوى عالٍ في الفكر والرأي وفي فهم الأمور[1] .

وجعلوا للشعراء مزايا ، ومنحهم العلماء امتيازات خاصة ، وقالوا عنهم : « الشعراء أمراء الكلام ، يقصرون الممدود ، ويمدّون المقصور ، ويقدمون ويؤخرون ، ويؤشرون ويُشيرون ، ويختلسون ويُعيرون ويَستعيرون . فاما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب ، فليس لهم ذلك »[2] .

وفي كتب أهل الأخبار أخبار تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقي العقلي ، وعلى تقدير الناس لمدارك الشعراء . جاء أن « الطفيل الدوسي قدم مكة ورسول الله بها ، فحذره رجال من قريش من سماع النبي حتى لا يتأثر بقوله . قال الطفيل : فما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ، ثم قلت في نفسي : واثكل أمي ! والله إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني من أن أسمع هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وان كان قبيحاً تركته »[3] ، وجاء في خبر آخر ، « ان الطفيل لما قدم مكة ، ذكر له ناس من قريش أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وسألوه أن يختبر حاله فأتاه فأنشده شعره ، فتلا النبي الإخلاص والمعوذتين فأسلم »[4] . وفي هذا الخبر ان صح دلالة على تقدير الناس لفطنة الشاعر ولسمو مداركه . وقد رأينا ما كتبه (هوذة بن علي) الحنفي ، للرسول من أنه شاعر قومه وسيدهم ، ونجد في خبر (جلاس بن سويد) الصامت الأنصاري، أن قومه أتوا عليه « فقالوا: إنك امرؤ شاعر ..»[5] ، وفي هذه الأخبار وغيرها دلالة على أن الشعراء كانوا يرون أنفسهم فوق الناس في الفطنة والفهم ، وأن الناس كانوا يرون هذا الرأي فيهم ، لما يجدونه فيهم من فطنة وذكاء .

---

١ فجر الاسلام (٥٥ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٤٧١) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/٢٣٥) ، فجر الاسلام (٥٦) .
٤ الاصابة (٢/٢١٧) ، (رقم ٤٢٥٤) ، الاستيعاب (٢/٢٢٣) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الاصابة (١/٢٤٣) ، (رقم ١١٧٦) .

ولا يعني هذا ان الشعراء كانوا كلهم من أرقى الناس عقـلاً ، ومن أفهم الناس إدراكاً ، ومن أعلمهم بالأمور وأبصرهم بالمعرفة ، فبينهم ولا شك تفاوت في الإدراك ، وفي مجتمعهم من هو أرقى منهم عقلاً وأكثر منهم إدراكاً ، وهم مع ذلك لا يقولون الشعر أو لا يمارسونه ، مثل الحكام والكهنة ،وأصحاب الآراء. وانما الشعر ، ملكة ، لا تكون إلا عند صاحب حس مرهف ، ولا تظهر إلا في انسان ذكي فطن لبيب ، يذل الألفاظ والأبيات ، لتنصاع لإرادته ، فيخرجها أبياتاً وقصائد تعبر عن مشاعره ومداركه . فالشاعر من هنا من أذكى النـاس ، ومن أهل الإدراك والمعرفة .

والشعراء ككل البارزين من طبقات مختلفـة تباينت في السويات ، منهم من نبت من عائلة شريفة ، ومنهم من نبت من عائلة أعرابية ، ومنهم من نبغ من بيت فقير . وقد سمى أهل الأخبـار شعراء بأسمائهم كانوا من أشراف قومهم ، وسمّوا شعراء كانوا من أوساط أقوامهم ، أو من النابتة . فالنبوغ لا يختص بجماعة دون جماعة ، ولا بطبقة دون طبقة .

وشعر الشاعر هو دليل عقليته ومقدار مداركه ، ولهذا تباين واختلف ، فنجد في شعر شعراء البادية الروح الأعرابية والخشونة تتجسم في المعاني وفي الألفاظ ، ونجـد في شعر الحضر أثر النفس الحضريـة ، ونرى في شعر الجوابين القاصدين للملوك ، والذاهبين الى الحضر والأعاجم ، أثر اختلاطهم بهم في شعرهم ، كما هو في شعر الأعشى .

والشعراء الجاهليون ، هم من قبائل متعددة ذات لهجـات وحروف في الكلام مختلفة ، ولكننا نرى أن لغة شعرهم وطريقة نظمهـم واحدة ، لا فرق فيها بين قحطاني وعدناني ، ولا بين شاعر من عرب العراق أو بلاد الشأم وشاعر من أهل اليمن أو الحجاز أو نجد . ومعنى هذا ان الشعراء كانوا اذا نظموا شعراً، نظموه ببحور معروفة مقررة ، وبلغة عالية ، سمت فوق لهجات القبائل، على نحو ما نفعل في الزمن الحاضر من استعمال لغة عربية فصيحة هي لغة القرآن الكريم في النظـم والنثر والاذاعة وما شابه ذلك من وسائل الإيضاح والإعلان ، ومن استعمال لهجات محلية في الحياة اليومية الاعتيادية في مثل البيت والسوق والتفاهم بين الناس .

ولكن هـذا لا يعني أن الشعراء لم يكونوا ينظمون الشعر بألسنتهم القبلية ،

ووفق قواعد منطقهم ، فقد ثبت من أقوال علماء الشعر ، ومن أخبار أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا ينظمون بلهجاتهم ، وكان نظمهم مفهوماً عند غيرهم ، وقد تحتاج الاذن الى تأمل وتفكير ، لإدراك كلمات ومعاني ذلك الشعر . قال (ابن هشام) في شرح الشواهد : « كانت العربُ ينشد بعضهم شعرَ بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات »[1] . فالشاعر التميمي ، ينظم بلهجته ، والشاعر الأسدي ينظم بلهجة بني أسد قومه الذين ولد بينهم ، والشاعر الثقفي ينظم بلهجة ثقيف ، ولكنه إذا أنشده في غير قومه ، فهم وعرف معناه ، وان احتيج الى ترقيع أو تعديل في بعض الأحيان .

ودليل ما أقول : هو ما نجده في شعر الشواهد من اضطراب في القواعد ، وخروج على أصول النحو والصرف ، وورود ألفاظ في الشعر الجاهلي دعاها علماء اللغة غريبة أو وحشية ، أو ألفاظ خاصة ذكروا أنها وردت في شعر الشاعر ، لأنها من ألفاظ قبيلته، التي انفردت بها دون سائر القبائل ، ولو كان نظم الشعر بغير لغة القبائل ، لما شاهدنا فيه هذه الخصائص اللسانية التي وجدها علماء اللغة في شعر بعض الشعراء ، ولجاء الشعر كله بلا خصائص قبلية وبلا ألفاظ غريبة ، أما وقد صقل العلماء الشعر وحسنوا في بعض ألفاظه ، ونقحوا منه ما نقحوه ، فإن ذلك دليل في حد ذاته على أن الشعراء كانوا ينظمون الشعر بألسنتهم ، وهي غير متباينة تبايناً كبيراً ، فلما ضبطه العلماء ، ودونوه ، هذبوا ما شذّ منه وفق القواعد التي تثبتت في الاسلام . ففي الأخبار أن رواة الشعر ، كانوا يجرون تغييراً في نصوص الشعر ، لتحسين الشعر وتصليحه ، فقد رووا أن (الأصمعي) رفع لفظة (زنديه) من هذا البيت المنسوب الى (امرىء القيس) :

رب رام من بني ثعلٍ مخرج زنديه من ستره

فجعله كفيه[2] ، ورووا اجراء اصلاحات أخرى ، أدخلها علماء اللغة على شعر امرىء القيس وغيره ، اقتضتها قواعد الاعراب أو البلاغة والبيان[3] .

---

١ المزهر (١/٢٦١) ، (النوع السادس عشر) .
٢ الموشح (٢٢) .
٣ الموشح (٢٢ ، ٢٨ ، ٨٥ ، ٩٥) ، مجالس ثعلب (٤٨١) .

ونجد في (رسالة الغفران) ملاحظة طريفة عن التغيير الذي كان يجريه (المعلمون) في نصوص الشعر ، فقد تصور ان (امرىء القيس) قد سئل عن كيفية وجود (الزحاف) في شعره ، ثم أجاب على لسانه بقوله : « فيقول امرؤ القيس : أما أنا فما قلت في الجاهلية إلا بزحاف :

لك منهن صالحٍ

وأما المعلمون في الاسلام ، فغيّروه على حسب ما يريدون »[1] .

وورد ان رواة الشعر كانوا ينقحون حتى في شعر الشعراء الاسلاميين،وحجتهم في ذلك ان « الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء »[2] . وقد يقوم بذلك رواة الشاعر نفسه . ورد ان رواة الفرزدق كانوا « يعدلون ما انحرف من شعره » ، وأن رواة جرير ، فعلوا مثل فعلهم في إصلاح شعر صاحبهم[3] .

والتصحيح المذكور،وان كان جزئياً ، تناول ألفاظاً في الأكثر، لكنه في الواقع تحريف وتزييف ، وتغيير للنصوص وتبديل لها ، حرمنا من الوقوف على قواعد اللهجات العربية عند الجاهليين ، بسبب ان المعدلين المصححين ، لم يشيروا في كثير من الأحايين الى المواضع التي غيّروها وأجروا التصحيح فيها ، ولو فعلوا ذلك ، لكان الأمر علينا سهلاً هيناً ، إذ يكون في وسعنا إرجاع الأمور الى نصابها والوقوف على النصوص،وإن كان عملهم هذا هو عمل مخالف للذمة وللحق، حتى في هذه الحالة ، لأن من قواعد الأمانة وجوب المحافظة على الأصل .

وعندي أن اللغة التي نظم بها الشعر الجاهلي هي لغة الأعراب ، وهي أصل اللغة العربية ، ولغة أهل البوادي والقرى التي غذتها البادية بالسكان . ولهذا قال (الجاحظ) : « ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابياً »[4] ، دلالة على ما للبادية والبداوة من صلة به . ولهذا أيضاً جعل العلماء مقياس الشعر أن يكون عربياً بألفاظ نجدية ، أي أعرابية خالصة ، وهذه العربية كانت تمتد فتشمل لغة أعراب بادية الشأم ، بما في ذلك قرى الفرات العربية ، التي جاء سكانها العرب

---

١ رسالة الغفران (٣١٨) .
٢ الموشح (١٢٥) .
٣ الاغاني (٤/٢٥٨) .
٤ البيان والتبيين (١/٩٤) .

من البادية . ولهذا أيضاً حفلوا بالشعر الصلب الصلد ، المنظوم بألفاظ بدوية صميمة تمثل الغلظة والشدة والمتانة ، ولم يميلوا الى شعر شعراء أهل القرى ، لأنه شعر سهل سلس ، خال من صلابة البوادي ومن غلظة الشعر الأعرابي .

وشعراء الجاهلية بعد ، إما شعراء ظهروا بين أهل الوبر ، فهم شعراء أعراب يمثل شعرهم نَفَس البادية : وطبيعة البداوة وعقليتها ، وإما شعر أهل مدر ، وهم الحضر ، المستقرون ، وسكان القرى . ولشعر شعرائهم طابع خاص يمثل الطبيعة الحضرية حسب درجاتها ومراتبها واختلاط أهلها بالأعاجم ، أو انعزالهم في مستوطنات حضرية ظهرت في البادية . فمن سافر من شعرائهم واختلط بالأعاجم ، وشاهد بلاد الشأم والعراق ، تأثر بما شاهده ، فبان ذلك الأثر في شعره ، كما يظهر ذلك في شعر الأعشى ، وعدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت .

وطبيعي أن يكون بين الشعراء تنافس وتحاسد وتقديم وتأخير وتفضيل . وفي كتب الأدب أمثلة على منافرات ومناظرات جرت بين شعراء ، لبيان رأيهم في شعر شعراء آخرين . وطبيعي أيضاً أن يكون بين شعراء الجاهلية كالذي وقع في كل زمان ومكان ، شعراء فحول ، وشعراء دونهم في المنزلة والدرجة وفي القدرة في الشعر .

وذكر أن شعراء الجاهلية كانوا يتفاخرون بعضهم على بعض ، ويتعارضون في قول الشعر ، ويمالطون . والمالطة : أن يقول رجل نصف بيت ليتمه الآخر ، ويقال لذلك التمليط ، وأن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيماً وهذا قسيماً ، لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه[1] ، وهو نوع من التفاخر والتنافر والتعجيز وإظهار النفس بالتغلب على المنافس .

وللشعراء بعد منازل في قول الشعر ، فمنهم الشاعر الفحل ، الذي لا يبارى ، ذكر أنهم كانوا لا يسمون الشاعر فحلاً ، إلا إذا كانت له حكمة . ومنهم الشاعر الخنذيذ . والخنذيذ : الفحل ، والشاعر المجيد المفلق ، وتطلق اللفظة أيضاً على الخطيب البليغ المفوه المصقع وعلى العالم بأيام العرب وأشعارهم[2] . وقيل :

---

١ العمدة (٢٠٢/١) ، (٩١/٢) ، « مالط فلان فلانا اذا قال هذا نصف بيت وأتمه الاخر بيتا . يقال ملط له تمليطا » ، اللسان (٤٠٩/٧) ، (ملط) .

٢ تاج العروس (٥٦١/٨) ، (الخنذيذ) ، المزهر (٤٨٩/٢) .

الشاعر الخنذيذ ، هو الذي يجمع الى جودة شعره رواية الجيد من شعر غـيره . والمفلق ، هو الذي لا رواية له ، إلاّ أنه مجود كالخنذيذ في شعره ، وقيل : هو الذي يأتي في شعره بالفلق ، وهو العجب . ثم يليه الشاعر فقط ، وعرّفوا الشاعر ، أنه الذي لم ينعتـه علماء الشعر بنعت من هذه النعوت ومن كان فوق الرديء بدرجة . وأما الشعرور ، فهو لا شيء ، والشويعر ، هو من كان دون الشاعر في الشعر[1] . ويذكرون أن الشعراء أربعة . ذكروا في شعر ، ينسبه بعضهم الى الحطيئة ، هو :

الشعراء فاعلمـن أربعـه فشاعر لا يرتجى لمنفعـه
وشاعر ينشد وسط المعمعـه وشاعر آخر لا يجرى معه
وشاعر يقال خمر في دعـه

وقالوا : رابع الشعراء ، إزدراء وتحقيراً :

يا رابع الشعراء كيف هجـوتني وزعمت أني مفحم لا أنطق[2]

وقسم بعض العلماء الشعراء : ثلاث طبقات : شاعر ، وشويعر ، وشعرور[3] .

ورووا : أن امرأ القيس بن حجر أطلق لفظة (الشويعر) على (محمد بن حمران بن أبي حمران) ، وهو ممن سُمي محمداً في الجاهلية ، وهو شاعر قديم، فقال فيه :

أبلغـا عنّي الشويعر أنّي عمد عـين نكبتهن حزيما

فسمي بهذا البيت الشويعر[4] .

قال (الجاحظ) : « والشعراء عندهم أربع طبقات . فأولهم : الفحل الخنذيذ . والخنذيذ هو التام . قال الأصمعي : قال رؤبة : الفحولة هم الرواة . ودون الفحل

---

١ العمدة (١/١١٤ وما بعدها) .
٢ العمدة (١/١١٤ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢/٩) ، المزهر (٢/٤٩٠ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (٢/١٠) ، الخزانة (١/١٣٠) .
٤ البيان والتبيين (٢/١٠) الآمدي ، المؤتلف (١٤١) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٦) .

الخنذيذ الشاعر المُفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعرور . ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء :

يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعمتَ أني مفحم لا أنطق

فجعله سكيتاً مخلفاً ومسبوقاً مؤخراً .

وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعـــراء ثلاث : شاعر ، وشويعر ، وشعرور . قال : والشويعر مثل محمد بن حُمران بن أبي حمران ، سمّاه بذلك امرؤ القيس بن حجر »[1] .

ويظهر من القول المنسوب الى (رؤبة) ، ان الشعراء الرواة ، كانوا في نظره أرفع منزلة من بقية الشعراء ، ولعل ذلك بسبب طول حفظهم للشعر ، مما أكسبهم علماً وخبرة ومراناً به ، فصارت صياغتهم له أعلى من صياغـــة الشعراء الذين لم يكونوا يحفظون شعر غيرهم من الشعراء ، ولم يكن لهم علم بأساليب غيرهم من الشعراء . فبسبب الحفظ ، طوّعوا الشعر والكلم وركبوا ظهره بكل سهولة، حتى صار طوع أيديهم .

والتقسيم المذكور هو تقسيم اسلامي ، كما ان تقسيمهم الشعراء الى سبع طبقات هو تقسيم اسلامـــي كذلك . فقد قسموهم الى أصحـــاب المعلقات ، وأصحاب المجمهرات ، وأصحاب المنتقيات ، وأصحاب المذهبات ، وأصحـــاب المراثي ، وأصحاب المشوبات ، وأصحاب الملحمات[2] .

عدد الشعراء :

وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين عدد أسماء الشعراء الجاهليين الذين ذكروا في كتب الأدب ، فبلغ عدد ما أحصوه (١٢٥) شاعراً[3] . وهناك أسماء جاهليين استشهد الرواة ببيت أو بأبيات من شعرهم في كتب الأدب واللغة ، لو أحصوا

---

١ البيان والتبيين (٢/٩ وما بعدها) .
٢ زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٩ وما بعدها) .
٣ زيدان ، (١/٧٧) تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٥) .

واعتبرناهم من ضمن الشعراء ، لاضطررنا إلى تغيير هذا الرقم ، بإضافة هؤلاء عليهم . ومع ذلك ، فإننا لا نستطيع القول بأن هذا الرقم هو رقم نهائي ومضبوط لشعراء الجاهليـة ، فالمنطق يحملنا على تصور وجود عدد آخر من الشعراء فات خبرهم عن رواة الشعر ، لأسباب عديدة ، منها قدم أولئك الشعراء ، بحيث لم تتمكن ذاكرة حفظة الشعر من استيعابهم ، ثم بُعد بعضهم عن الأرضين الـتي حصر علماء الشعر فيها نشاط بحثهم عن الشعر الجاهلي وعن شعرائه ، ثم كـون قسم منهم من الشعراء المحليـين ، أو الشعراء المقلين الذين لم ينتشر شعرهم بين الناس .

وقد فطن الى ذلك القدماء ، فقال (أبو عمـرو بن العلاء) : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[1] ، وذكر غيره ان العلماء على حرصهم على العناية بجمع شعر الشعراء ، لم يتمكنوا مع ذلك من جمع أشعار قبيلة واحدة ، فكيف بشعر كل القبائل[2] ! والواقع ان في العرب قابلية على قول الشعر ، وبين الصحابة عدد كبير نظموا شعـراً روي في الكتب، ومع ذلك ، فلم يعدّهم العلماء في جملة الشعراء ، وكذلك الحال بالنسبة الى أهل الجاهلية ، فقد كان بينهم عدد كبير ينظم الشعر .

انشاد الشعر :

وللشعراء طريقة خاصة في انشاد الشعر . يذكرون ان الشاعر منهـم كان اذا أراد إلقاء شعر ، تهيأ لذلك واستعد له ، وأظهر للناس انه يريد إلقاء شعر. ومن أصولهم في الإلقاء أن ينشد الشاعر شعره وهو قائم[3] . وأن يلبس الوشي والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر[4] .

وذكر أن من عـادة الشعراء في الهجاء ، أن أحدهم كان إذا أراد الهجـاء

---

1 المزهر (٢/٤٧٤) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣) .
2 الشعر والشعراء (١/٨ وما بعدها) .
3 العمدة (١/٢٦) .
4 البيان والتبيين (٦٠) ، (انتقـاء الدكتور جميـل جبر) ، (بـيروت ، المطبعـة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (٣/١١٥) ، (هارون) .

« دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلاً واحدة »[1] . وقد ذكر (المرتضى) ، في خبر وفود العامريين على النعمان بن المنذر ، وكان فيهم (لبيد ابن ربيعة) ، وهو يومئذ غلام له ذؤابة ، وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم ، فأرادوا تقديم (لبيد) ليرجز بالربيع بن زياد رجزاً مؤلماً ممضاً ، وكان هو الـذي صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معايبهم ، فحلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين وألبسوه حلة وغدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان . فقام وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلاً واحدة على فعل شعراء الجاهلية إذا أرادت الهجاء ، ثم أنشد رجزه الذي أثر في النعمان ، حتى صار سبباً في ابعاد (الربيع ابن زياد) عنه[2] .

واذا أراد شاعر انشاد شعر ،وقف وأنشد شعره ، بأسلوبه الخاص في الإنشاد[3]. وقد يترنمون في انشادهم ليكون الإلقاء أوقع أثراً في نفوس السامعين . وقد يلقي راوية الشاعر شعر شاعره إذا كان أقدر منه على الإنشاد . وذكر أن (النشيد) هو الشعر المتناشد بين القوم ينشد بعضهم بعضاً ، ومنه نشد الشعر وأنشده ، إذا رفعه . وأنشد بهم ، هجاهم . « وفي الخبر أن الشيطين قالوا لغسان : هـذا جرير ينشد بنا ، أي يهجونا »[4] . ولا يخلو الانشاد من الترنم على اللحن الذي يتسمح به الطبع ، ومن مدّ الصوت ، ليكون للشعر وقع على نفوس سامعيه ، وتأثير جميل على المنصتين له .

وذكر ان الشعراء كانوا لا ينشدون إلا قياماً ، وقد يعلو أحدهم موضعاً مشرفاً ، أو يركب ناقته ، ليدل على نفسه ، ويعلم انه المتكلم دون غيره، وكذلك كان يفعل الخطيب[5] . وقد استدل بعض المستشرقين من هـذا الوصف على أن الشعراء انما أخذوا تقليدهم هذا من السحرة : الشعراء الأوائل ومن الكهنة ، لأن السحرة والكهنة كانوا ينظمون الشعر وينشدونه على هيأة خاصة،يلبسون فيها أردية خاصة ويقفون في وضع خاص حين إنشاد الشعر .

---

١ أمالي المرتضى (١٩١/١) .
٢ أمالي المرتضى (١٩١/١) ، الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٢٣/٣) .
٣ العمدة (٢٦/١) .
٤ اللسان (٤٢٢/٣ وما بعدها) ، (نشد) .
٥ العمدة (٢٦/١) .

وذكر ان الملوك كانوا يجلسون خلف الستور حين يستمعون الى شاعر . فروي ان (عمرو بن هند) كان يسمع الشعراء من وراء سبعة ستور[1] . وان الشاعر (الحارث بن حلزة) اليشكري لما طلب قومه منه انشاد قصيدته أمام (عمرو بن هند) ، قال لهم : « والله إني لأكره أن آتي الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثري بالماء ، اذا انصرفت عنه ، وذلك لبرص كان به » . فلما سمع قصيدته أمر برفع الستور سترا سترا ، حتى صار مع الملك في مجلسه ، وأمر أن لا ينضح أثره بالماء .. » « وأمره أن لا ينشد قصيدته إلا متوضئاً »[2] .

ولكن العادة أن الشاعر يقف أمام الملك ، الذي قد يكون جالساً على سرير ، فينشده شعره بعد أن يكون قد استأذنه بذلك . وقد يكون في المجلس جملة شعراء ، أذن لهم بالدخول عليه جملة واحدة ، لينشدوا الملك شعرهم وما جاءوا به من شعر في مديحه . ويكون المجلس عامراً بأهل الحظوة من المقربين الى الملك ومن الشعراء الملازمين له . وكانت مجالس ملوك الحيرة ، عامرة بهذه المناسبات ، أكثر بكثير من مجالس الغساسنة ، لغلبة النزعة الأعرابية على ملوك الحيرة وقلة تأثرهم بالحضارة ، وتغلب الحياة الحضرية على الغساسنة وتأثرهم بالحياة اليومية لأهل الشأم ، وبنزعة الروم في الحكم وفي آداب السلوك ، حتى أنهم كانوا يتلذذون في الاستماع الى غنائهم ، ولهم قيان في قصورهم وبيوتهم يغنين لهم بغناء الروم .

وكان من عادة الأعراب الطواف حول قبة الملك مع رفع الصوت بالرجز ، ليسمع الملك صوت الراجز ، فإذا عرفه أو أعجبه رجزه ، اذن له بالدخول . وكان الملوك يضربون قبة على أبوابهم ، يقعد فيها الناس حتى يؤذن لهم[3] وقد يكون هذا الرجز مقدمة لدخول الشاعر على الملك حتى يلقي عليه ما يكون نظمه في مدحه وفي مدح آله من شعر .

وكان من عادة الملوك وسادات القوم والأشراف انهم اذا سمعوا الشاعر ، واستحسنوا شعره ، طربوا حتى يظهر الطرب عليهم وأظهروا استجادتهم لشعره ، وربما شربوا اذا كانوا في مجلس الشرب ، وأدنوا الشاعر اليهم ، وأسقوه من

---

١ شرح المعلقات ، للزوزني (١٥٤) ، (صادر) .
٢ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٣٧٩ وما بعدها) ، (معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي) .
٣ الخزانة (١٥٨/٤) ، (بولاق) ، (الشاهد الثامن والثمانون بعد السبعمائة) .

شرابهم حتى يطرب . وقد يطلبون من الشاعر إعادة إنشاد الأبيات المستجادة . وكان الشاعر يستأذن صاحب المجلس أولاً ليسمح له بانشاده شعره . ولما استأذن (النابغة) الجعدي رسول الله ، أن ينشده شعره ، قال له الرسول : أجدت لا يفضض الله فاك ، أي لا يكسر أسنانك ، والفم هنا الأسنان[1] . ولا زال الناس يرددون هذه العبارة وعبارة : أعده أحسنت وأجدت ، أو أعد أعد ، يقولونها بحماس وبصوت مرتفع ارتفاعاً يتناسب مع حس الاستحسان اذا قال الشاعر قولاً يستجيده العارفون بالشعر .

سوق عكاظ :

ومن مرويات أهل الأخبار ، ان الشعراء الجاهليين كانوا يفدون الى عكاظ ، « فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، ثم يتفرقون »[2]. وذكر ان (النابغة) الذبياني ، كان ممن يأتيها ، فتضرب له قبة حمراء من أدم ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، وكان ممن تحاكم اليه ، الأعشى ، أبو بصير ، فأنشده ، ثم أنشده (حسان بن ثابت) ، ثم الشعراء ، ثم جاءت (الخنساء) فأنشدته ، فقال لها (النابغة) : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت انك أشعر الجن والإنس . فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك . فقبض النابغة على يده ، ثم قال : يا ابن أخي ، انك لا تحسن أن تقول مثل قولي :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

ثم قال للخنساء : أنشديه ، فأنشدته ، فقال : والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك ، فقالت له الخنساء : والله ولا ذا خصيين »[3] .

---

١ تاج العروس (٥/٦٩) ، (فض) .

٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) ، معجم البلدان (٦/٢٠٣) ، البلدان (٣/٧٠٤) ، اللسان (٧/٤٤٧) ، (عكظ) .

٣ الشعر والشعراء (١/٢٦١) ، الاغاني (٨/١٩٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٦ وما بعدها) ، تاج العروس (٥/٢٥٥) .

وروي أن (حسان) كان قد أنشده شعره :

لنا الجفنات الغُر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً واكرم بنا ابنما

فقال له (النابغة) : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وسيوفك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[1] .

وهو خبر مصنوع ، شك فيه العلماء ، « قال أبو علي : هذا خبر مجهول لا أصل له »[2] . وقد روي عن الآمدي قوله : « أجمعت العرب على فضل النابغة الذبياني ، وسألته أن يضرب قبة بعكاظ ، فيقضي بين الناس في أشعارهم لبصره بمعاني الشعر ، فضرب القبة وأتته وفود الشعراء من كل أوب » . ثم ذكر القصة ، وروي أن الذي فَنَّد حساناً وعاب عليه بيته ، هو الخنساء[3] . والقصة مطعون فيها . « حكى ابن جنى عن أبي علي الفارسي ، أنه طعن في صحة هذه الحكاية »[4] . فالقصة موضوعة، وما هذا القصص المروي عن (عكاظ)، إلا من روايات أهل الأخبار ، وضعوه مع قصصهم الموضوع عن اختيار قريش للغة ، وتخيرها أحسن الألفاظ ، وتحكيمها في الشعر .

وذكر أن (عمرو بن كلثوم) كان ممن حضر سوق عكاظ ، وقد أنشد فيها قصيدته الشهيرة :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تُبقي خمور الأندرينا

وهي معلقته الشهيرة ، وهي قصيدة طويلة ، ذهب الكثير منها ، قيل إنها كانت تزيد على ألف بيت . وقد ذكر أن الرسول سمع الشاعر ينشد قصيدته هذه بسوق عكاظ[5] .

---

١ العسكري ، المصون (٣ وما بعدها) ، خزانة الادب (٣/٤٣٠ وما بعدها) ، ديوان حسان (٣٧١ وما بعدها) ، الاغاني (٧/١٨٠) .
٢ خزانة الادب (٣/٤٣١) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٦ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٧) .
٥ الاغاني (١١/٥٤) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٢) .

ولم نسمع ان أحداً من الشعراء حكم في الشعر في سوق عكاظ قبل (النابغة) ولا بعده . وسوق عكاظ سوق لم تقم إلا قبيل الاسلام ، ولعل هذا التحكيم من القصص الذي أوجده أهل الأخبار ، وقد يكون (النابغة) قد نظر حقاً في شعر (حسان) ، ولكن ذلك لا يمكن أن يعد حكومة دائمة لسوق عكاظ ، اختصاصها النظر والتحكيم في شعر الشعراء الجاهليين ، واذا كان (النابغة) حاكم سوق عكاظ حقاً ، فلمَ لم نسمع بأحكام أخرى له في حق شعر شعراء آخرين ، ما دام كان يحضرها في كل عام ، وتضرب له قبة من أدم ، يجعلهـــا مقراً له ولحكومته ، ولمن يحضر اليه من الشعراء رجاء النظر في شعره .

وذكر ان القبائل كانت تفد الى (عكاظ) وتبحث عن مختلف الأشياء وتتداول أشياء قبيحة أو محمودة ، وان الرسول حضرها ، للدعوة الى الاسلام[1] .

ولم نسمع بأن الشعراء كانوا يتوافدون الى مكة موسم الحج ، لإنشاد شعرهم، على نحو ما ذكر عن سوق عكاظ ، مع أن موسم الحج من المواسم المعهودة بالنسبة الى قريش والى من كان يعيش حولها من قبائل ، وشرف إلقـاء الشعر في موسم الحج أسمى ولا شك من شرف إلقائه بسوق عكاظ وفي الأسواق الأخرى ، فلو كان الشعراء كما زعم أهل الأخبار يقيمون وزناً كبيراً لحكم قريش في أشعارهم ، فلِمَ لا نجد في أخبارهم خبراً يشير الى تجمع الشعراء في مكة للتبـاري في انشاد الشعر وفي الحصول على شرف التقدير والتقيم من قريش ، ليتباهى الفائز بالتقدير على سائر أقرانه الشعراء ؟ ثم لِمَ لم نسمع بأسماء القصائد التي نالت منهم شرف التقدير والتعظيم ، خلا المعلقات السبع ، التي شك في صحة تعليقها حتى المحافظين من أمثال المرحوم (الرافعي) !

يثرب :

واذا كانت سوق عكاظ موضع تحكيم على النحو الذي رأيناه ، واذا كانت مكة ، قد نظرت في شعر شاعر ، أو شاعرين ، فقد كانت يثرب موضع تقدير

---

١ التاريخ الكبير (٣٢٣/١) ، البداية والنهايـــة (١٤١/٣) ، معجـــم البلـدان (٧٠٤/٣) ، الاغاني (٦/١١) ، المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة (١٥١٤/٣ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٢) .

وتقييم للشعر كذلك . فقد ذكر أهل الأخبار ان « النابغة قدم المدينة ، فدخل السوق ، فنزل عن راحلته ، ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ثم أنشأ يقول :

عرفت منازلاً بعريتنات فأعلى الجزع للحي المبين

حتى اذا انتهى من شعره ، قال ألا رجل ينشد ؟ فتقدم (قيس بن الخطيم) فجلس بين يديه وأنشده قصيدته التي مطلعها : « أتعرف رسماً كاطراد المذهب » حتى فرغ منها ، ثم استمع الى شعر حسان . وذكر انه قال لكل واحد منهما : « أنت أشعر الناس »[1] .

وروي ان (النبي) وضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي[2] ، وذلك لما كان للشعر من أثر في نفوس الناس آنذاك .

وقد تخصص أناس بإنشاد الشعر ، كانوا رواة شعر ، ينشدون شعر غيرهم أو شعرهم بأسلوب مؤثر ، ذكر ان منشداً أنشد يوماً رسول الله :

لا تأمنن وإن أمسيتَ في حرم حتى تلاقي ما يمني لك الماني
فالخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان[3]

تطواف الشعراء :

وكان الشعراء يتنقلون من مكان الى مكان ، فكان (الأسود بن يعفر) ، « يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيذم ويحمد »[4] ، وجاب (الأعشى) معظم أنحاء جزيرة العرب والعراق وبلاد الشأم ، وكان النابغة يتنقل ، فيزور ملوك الحيرة والغساسنة ، ويسافر الى مكة وسوق عكاظ ، وكان (عمرو بن كلثوم) من المتنقلة كذلك ، وقد علمت أمر (امرىء القيس) وتنقله بين القبائل، وأمر

---

١ الاغاني (٣/١٠) ، (دار الثقافة) .
٢ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) .
٣ الفائق (٣/٥٢) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .

(الصعاليك) ، الذين كانوا يتنقلون من مكان الى مكان للحصول على رزقهم ، وأمر (حسان) وقصده ملوك الغساسنة ووصوله الى الحيرة ، بل اننا لا نكاد ندرس حياة شاعر جاهلي ، حتى نراه جواباً ، متنقلاً من مكان الى مكان، حتى صار التنقل من سيماء الشاعر عند الجاهليين ، وكان هدفهم في الدرجة الأولى ملوك الحيرة ثم ملوك الغساسنة ، أما ملوك اليمن ، فقلما نجد في أخبار الشعراء وصولهم اليهم وانشادهم شعرهم أمامهم ، وذلك بسبب أن لسانهم كان لا يشاكل لسان الشعراء ، وأما ما نسب اليهم من شعر ، وما قيل من مدح بعض الشعراء لهم ، فهو من القصص الذي لا يرجع الى أصل ، إلا ما ذكر من شعر في مدح بعض أذواء اليمن،فإن هؤلاء لم يكونوا ملوكاً ، وإنما كانوا سادة مواضع وقبائل تقع شمال اليمن في الغالب ، وقد كانت على صلة بالعرب الشماليين ، وبلغة (ال) في ذلك الحين ، ومع ذلك فإن صلتهم بهم لم تكن على نمط صلة الشعراء بساداة العرب الشماليين .

كان الشاعر يتنقل بين القبائل ، فينزل على ساداتها ويحل في ضيافتهم ، يقصد ملوك الحيرة خاصة ، لما كان لهم من نفوذ في جزيرة العرب ، ولينال عطاياهم، أو ليتوسط في حل ما بين الملوك وما بين قبيلة الشاعر، أو قبائل أخرى من أمور معقدة ومشكلات مستعصية ، كما كان يزور الريف والقرى للميرة ولنيل هبات ساداتها من تمور أو دقيق أو أي شيء آخر يكون عند الحضر . فيمدح ويذم ، وينشد شعره في أسواق القرى وفي نواديها ومجتمعاتها ، فكان سوق (يثرب) ، وهو المحل الذي يتجمع فيه الناس للبيع والشراء الموضع الذي يقصده الشاعر لإنشاد شعره به ، ثم حل مسجد الرسول محله في الاسلام .

وقد ورد في الشعر الجاهلي ذكر بعض المواضع التي نزل بها الشاعر ، أو التي ارتحل اليها ليزورها ، وقد طمست أسماء بعض منها ، وبقيت أسماء بعض آخر . وقد أمدتنا هذه الأسماء بمادة طيبة ، أفادتنا في الحصول على معارف تأريخية وجغرافية عنها . ففي شعر (الأعشى) ، وهو من الشعراء المتنقلة الذين أكثروا من الأسفار ، وتنقلوا من مكان الى مكان ، نجد أسماء أماكن عديدة وردت في شعره ، مثل (عانة) ، و (بابل) ، و (الحيرة) ، ومواضع في اليمامة وفي اليمن . وتطرق في شعره هذا الى أحوال من مر بهم ، وذكر أسماءهم وأسماء قبائلهم ، فصار شعره لذلك مورداً هاماً بالنسبة لنا ، أفادنا في الوقوف على

نواح مهمة من التأريخ الجاهلي .

رحل (الأعشى) الى الغساسنة ملوك عرب الشأم ، والى المناذرة ملوك عرب العراق ، والى (قيس بن معديكرب) ، والى (ذي فائش) في اليمن ، والى (بني الحارث بن كعب) في نجران ، فمدحهم ونال عطاءهم ،وأقام عندهم يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي[1] ، مما يدل — إن صح هذا الخبر — على تأثر سادة نجران بالثقافة الرومية ، التي ربما أخذوها عن طريق ارتباطهم بالروم بروابط النصرانية ، وعلى وجود جالية من الروم في نجران أو رجال دين من الروم ، عينتهم الكنيسة لتعليم الناس أمور الدين ، فقد كان الروم يرسلون رجال دينهم الى هذه المواضع والى غيرها للتبشير ، ولأغراض سياسية في الوقت نفسه .

ونجد في شعر (الصعاليك) أسماء المواضع التي غزوها ، والطرق التي سلكوها في طريقهم الى الغارات ، أو في طرق عودتهم منها الى ديارهم ، ونظراً الى كثرة تنقلهم وخبرتهم بالمواضع ، وبأبعادها وبأصحابها ، لما في هذه الخبرة من العلاقة بنجاح سوقهم وتجارتهم ، أفادتنا إشارتهم الى المواضع والقبائل فائدة كبيرة إذ حصلنا بواسطتها على معارف عن أحوال أهل الجاهلية ، ساعدتنا في سد بعض الثلم الكثيرة من ثلم بنيان التأريخ الجاهلي .

طباع الشعراء :

والشعراء في الطبع مختلفون ، منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من تتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل ، ومنهم من يحسن الوصف ، فإذا صار الى المديح والهجاء ، أو الى الحكم والموعظة ، خانه الطبع ، وتأخر عن غيره من الفحول[2] . ومن هنا لم يبرز فحول الجاهلية ، ومن عدّ في الطبقة العليا من طبقات الشعراء في كل درب من دروب الشعر وطرقه وفنونه . بل ظهروا وبرزوا في أمور ، وتأخروا أو لم يبرزوا في أمور أخرى ، فذكروا مثلاً ان (النابغة) الجعدي ، كان أوصف الناس لفرس[3] . وورد عن (ابن الأعرابي) قوله :

---

١ الاغاني (٦/٣٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٧) ، (الثقافة) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .

« لم يصف أحد قط الخيل إلا احتـاج الى أبي دواد ، ولا وصف الحُمر إلا احتاج الى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد النعامة إلا احتاج الى علقمـة بن عبدة ، ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج الى النابغة الذبياني[1] .

وقد قال من قدّم (امرأ القيس) على غيره من الشعراء ، انـه « سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعته فيهـا الشعراء ، منه استيقاف صحبه والبكاء في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخـذ ، وشبّه النساء بالظباء والبيض والخيل والعقبان والعصي ، وقيّد الأوابد ؛ وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[2] . فهذه هي المزايا التي ميزت شعره عن شعر غيره من الجاهليين .

وقال علماء الشعر الذين قدّموا النابغة على غيره ، انه كان أحسنهم ديباجـة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف[3] . وأما الذين قدّموا (زهيراً) على غيره ، فقالوا : « كان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة في المدح »[4] .

وقلما نجد الشاعر الجاهلي يعنى بوصف الطبيعة أو مظاهرها بشعر خاص ، كأن يصف المطر وحده ، أو الشمس والكواكب والأجرام السماويـة ، أو الجبال أو السهول أو الحيوانات أو النبـات ، وصفاً خاصاً لا يهرب منه الى أمور أخرى لا صلة لها بهذا الوصف ، ثم إنه قلما يتعمق في الوصف ، فيصف الأجزاء والفروع وكل ما في الموصوف من مميزات ، وهو إذا وصف الطبيعة ، أو تعرض لوصف مشهد بارز منها أثر عليه ، فإنه لا يفرد ذلك الوصف في كلمة خاصة به لا يشاركه فيها مشارك بحيث يكون شعره وصفياً خاصاً بالطبيعة ، وإنمـا يقحم الوصف في القصيدة جرياً على العرف الشعري الذي سار عليه الشعراء ، وليس عن عمد وتقصد لوصف ما يراد وصفه بالذات . ثم هو لا يصف من الشيء الموصوف ككل ، وإنما يصف منه ما يلفت نظره ، وما يؤثر على حسه وبصره . فهـو إذا وقف

---

١ الاغاني (١٥/٩٣) .
٢ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .
٣ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٨) .

أمام شجرة لا ينظر اليها ككل ، إنما يستوقف نظره شيء خاص فيها ، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ؛ وإذا كان أمام بستان لا يحيطه بنظره ، ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه (الفوتوغرافيا) ، إنما يكون كالنحلة يطير من زهرة الى زهرة فيرتشف من كل رشفة .

هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف لك ما ترى في أدب العرب — حتى في العصور الإسلامية — من نقص ، وما ترى فيه من جمال .

فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية — نظماً أو نثراً — من ضعف المنطق ، وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وقلة ارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت الى القصيدة — وخاصة في الشعر الجاهلي — فحذفت منها جملة أبيات أو قدّمتَ متأخراً أو أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارىء أو السامع ذلك — وإن كان أديباً — ما لم يكن قد قرأها من قبل[1] .

« وهذا النوع من النظر هو الذي قصّر نفَس الشاعر العربي ، فلم يستطع أن يأتي بالقصائد القصصية الوافية،ولا أن يضع الملاحم الطويلة كالإلياذة والأوديسا.

أما ما أفادهم هذا النوع من التفكير ، وخلع على آدابهم جمالاً خاصاً، فذلك ان هذا النظر لما انحصر في شيء جزئي خاص جعلهم ينفذون الى باطنه ، فيأتون بالمعاني البديعة الدقيقة التي تتصل به ، كما جعلهم يتعاورون على الشيء الواحد ، فيأتون فيه بالمعاني المختلفة من وجوه مختلفة ، من غير إحاطة ولا شمول ، فامتلأ أدبهم بالحِكم القصار الرائعة والأمثال الحكيمة . وأتقنوا هذا النوع الى حد بعيد ، عَنِيَ به عقلهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، حتى لينهض الخطيب فيأتي بخطبته كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحِكم الموجزة الممتعة ، فلكل جملة معان كثيرة تركزت في حبّة ، أو بخار منتشر تجمع في قطرة . ولما جاء الاسلام تقدم هذا النوع من الأدب ، واقتبسوا كثيراً من حِكم الفرس والهند والروم »[2] .

وأكثر الوصف الوارد في الشعر الجاهلي ، وصف لم يرد لأن الشاعر قصده وأراده ، وإنما هو وصف ورد عرضاً في القصيدة على النسق الذي زعموا أن (امرأ القيس) وضعه وحاكاه فيه غيره ممن عاصره أو جاء بعده من الشعراء .

---

١ فجر الاسلام (٤٢ وما بعدها) ، (الطبعة العاشرة ١٩٦٥) .
٢ فجر الاسلام (٤٣ وما بعدها) .

فالشاعر يبدأ بتذكر الديار وبالبكاء على الأحبة وعلى من فارقهم ، فيدفعه ذلك الى الوصف ، بأبيات يجعلها مقدمة لغرض آخر ، فهي إذن مقدمة ، وليست غاية ، ثم هو إذا افتخر وأراد الاشادة بنفسه وبما قام به من عمل بطولي،لم يصف نفسه وصفاً شاملاً عاماً ، وإنما يصف من نفسه بعض ما يعجبه وما يريد التبجح به ، من مغامرات عجيبة قام بها ، ومن صبر وتحمل للجوع وللمشقات وللأهوال ومن عدم تهيب من اقتحام الصحارى الموحشة المخوفة ، وحده ، لأنه لا يرهب أحداً ، ولا يخشى وحشاً ، فإذا جابهه وحش ، وصفه وصفاً ، لا يتعدى النواحي الخاصة التي يراها تظهر شخصيته وتبرز شجاعته ثم يبالغ ويبالغ في وصف المخاطر والمهالك التي لم يبال بها ، للوصول الى هدفه[1] . وهو اذا اصطاد صيداً ، بالغ في الجهد الذي صرفه في صيده ، ونوه بجودة حصانه ، وبالطريقة التي صاد بها فريسته .

وهو اذا ما أراد مدح انسان ، قدم لمدحه مقدمة تزيد على شعر المدح في الغالب ، يذكر فيها الأهوال والمخاطر وحرّ الشوق ، والتلهف الشديد وما شاكل ذلك من أمور ، لتكون شرح حال له يبين مبلغ حبه له واخلاصه لمن سيمدحه، ذي الجود والكرم والسخاء ، الذي يجود بماله وبما عنده ، ولا يحسب لنفسه ولأهله حساباً ، يجود خاصة في السنة الجماد ، وفي مواسم القحط والبرد الشديد حيث تموت الماشية والأنعام ، ومع ذلك فإن الممدوح ، لا يعبأ بكل ذلك ، ويسخر من الخوف من العواقب السيئة التي ستحيق به إن بذر ماله . وقد يبالغ الشاعر نفسه في مدح نفسه ، ويشيد بسخائه وجوده ، ويتخذ من ذلك قصص شجار يقع بينه وبين زوجه في الغالب ، يشاركها ولدها فيه ، بسبب تبذير الرجل لما عنده من مال ، وعدم اهتمامه بما سيحيق بأهله من جوع وفقر .

وهو اذا تغزل ، فوصف محبوبته ، فإنما يصف منها ما يلفت نظره ، من أجزاء في الجسد ، أو لون أو ما شاكل ذلك مما يلفت نظره ، وقد يقارن بينها وبين بعض الحيوانات التي تعجبه مثل المها والظباء ، والخيل والعقبان ، وقد زعم

---

١ غرونباوم (١٦٠ وما بعدها) ،
G. E. Von Grunebaum, Die Wirklichkeitweite der Fruh-arabisch Dichtung, Wien, 1937, S. 148. f.

أهل الأخبار ان (امرأ القيس) كان قد سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء ، منها انه شبّه النساء بالأمور المذكورة، فصار تشبيهه هذا لهن سنّة لمن جاء بعده من قالة الشعر[1]. وقد يصف الليل وشدة طوله وسهره فيه ومبلغ ما ألمّ به من أرق لفراق محبوبته ، أو من شدة تذكره لها ، وقد يذكر حزنه على فراقها وكيف انه كان يقضي لياليه ساهراً يناجي نجوم السماء ، ويعدها، ينتظر ذهاب كابوس ليله عنه حتى يتراءى له نور الصباح ، وفيه الأمل والرجاء. ووصفه كله ، ليس وصفاً كلياً عاماً محيطاً ، وانما وصف جزئي ، جاء تعبيراً عن خاطر الشاعر ومحاكاة للطريقة التقليدية التي توارثها الشعراء بعضهم عن بعض.

وقد برز بعض الشعراء في وصف بعض الحيوانات ، كما أشرت الى ذلك في مواضع سابقة ، فقد اشتهر (أبو دؤاد) بوصف الخيل ، حتى صُيّر بطل الشعراء في هذا الميدان ، واشتهر النابغة الجعدي بوصف الفرس ، واشتهر أوس ابن حجر بوصف الحمر ، وعرف علقمة بن عبدة بوصف النعامة[2] . وقد وصف غيرهم من الشعراء هذه الحيوانات وغيرها ، كما نجد ذلك في الأشعار المنسوبة اليهم .

ومن أبرز المواضيع التي تطرق اليها الشعراء في وصفهم لمظاهر الطبيعة: المطر، والنخيل،والسحب ، ومشاهد من فصول الشتاء ، والغدران ومواضع المياه والسيول والنحل والعسل البري ، وبعض الصخور الغريبة ، والطيور ، أما البحر والسفن ، فيردان على لسان الشعراء الساكنين على السواحل ، حيث يرون البحر وسفنه[3] . ولكننا لا نجد وصفاً خاصاً بهما ، يظهر فيه تأثر الشاعر وإحساسه بالبحر ، أو بالسفن ، من حيث هي سفينة ، وإنما ذكر وهما عرضاً على سبيل الفخر ،ولأمور عرضية أخرى . فالوصف الجاهلي لعناصر الطبيعة خالياً من المشاعر الخاصة ، ومن التصورات المعبرة عن إلهام الشاعر الذاتي[4] .

وذكر أن من الشعراء من كان يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ولا يهتم في الهجاء ، ومنهم من كان ينعي على نفسه ويتعهر ،

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، الاغاني (٩٣/١٥) .
٣ غرونباوم (١٦٢) .
٤ غرونباوم (٦١) .

ومنهم امرؤ القيس والأعشى[1] ، وأن منهم من كان يأتي بالحكم في شعره ، مثل: زهير والأفوه الأودي ، وعلقمة بن عبدة ، وعبيد بن الأبرص ، وعـدي بن رعلاء الغساني وغيرهم . والحكمة عندهم ، هي خلاصة تجارب الشاعر في هذه الحياة ، وما حصل عليه من رأي استوحاه من الواقع أو من أفواه الناس وتجاربهم. وهي بديهة من البديهيات صيغت شعراً . قد يبدع في صياغتها الشاعر فتسير بين الناس مثلاً ، كقول (عدي بن رعلاء) الغساني :

ليس من مات فاستراح بميْتٍ إنما الميّتُ ميّتُ الأحيـاء[2]

ويظهر من بيت ينسب الى (زهير) ، هو :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من لفظنا مكرورا

إن شعراء الجاهلية كانوا قد وصلوا الى حالة جعلتهـم يقلدون من سبقهم في الشعر ويحاكون طرقهم في النظم ، فهم يعيدون ويكررون ما قاله الشعراء قبلهم . وهو كلام يؤيده قول علماء الشعر في القصيدة ، من انها كانت تسير على هدى الشعراء السابقين في نظمها من بدء بذكر الديار والبكاء على الأحبة والأطلال الى غير ذلك من وصف ، حتى صارت هذه الجادة ، جادة يسير عليها كل شاعر، مما أثّر على البراعة والابتكار وجعل الشعر قوالب معروفة معينة ، يختار الشاعر قالباً منها ليعبر به عما يريد أن يقوله نظماً . ومن هنا ثار (أبو نواس) وأضرابه من الشعراء الاسلاميين على (التقليد) في النظم ، لتبدل العقلية وتغير الزمن ، وإن كنت أجد في هذه الثورة مبالغة وإفراطاً في الاتهام . فالقصيدة الجاهلية وإن غلب عليها التقليد والمحاكاة ، مما ضيق عليها المعاني ، إلا انها لم تكن كلها على نمط واحد على نحو ما يقوله علماء الشعر والأدب ، كان الشعراء يراعون الوزن والقافية والرويّ ، وهي أمور ميزت الشعر العربي عن غيره ، ولكنهـم كانوا يتحللون فيما عدا ذلك ، فيأتون بالمعاني التي تدركها عقولهم ، وهي معـان استمدت من المحيط ، وهو محيط واحد ، ألهم الشعراء شعرهم ، فمن ثم تقارب الإلهام وقربت المعاني ، ولو تعددت طبيعته ، لما غلب على شعر أولئك الشعراء ما نأخذه عليهم

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٤) .
٢ الاصمعيات (١٧١) .

وقد كان تغير وتنوع معاني الشعر في الاسلام ، نتيجة حتمية لتغير المحيط .

المغلبون :

ومن الشعراء من كان لا يستطيع الوقوف أمام خصمه ، فيغلب ، فذكر ان (النابغة) الجعدي ، كان مختلف الشعر مغلَّباً . وكانت العرب اذا قالت مغلَّباً فهو مغلوب ، واذا قالب غَلَبَ ، فهو غالب ، وقد غلبت عليه (ليلى الأخيلية) و (أوس بن مغراء) القريعي[1] . وذكروا ان (تميم بن أبي مقبل) وهو شاعر (خنذيذ) مُغَلَّب عليه النجاشي ، ولم يكن اليه في الشعر ، وقد قهره في الهجاء، ثم هاجى النجاشي عبد الرحمان بن حسان فغلبه عبد الرحمان ، وكان « ابن مقبل جافياً في الدين . وكان في الاسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها ، فقيل له تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم ، فقال :

وما لي لا أبكي الديار وأهلها وقد زارها زوار عك وحميرا
وجاء قطا الأجباب من كل جانب فوقع في اعطاننا ثم طيرا[2]

ومن المغلبين : الزبرقان ، غلبه عمرو بن الأهتم ، وغلبه المخبل السعدي ، وغلبه الحطيئة ، وقد أجاب الإثنين ولم يجب الحطيئة[3] .

والهجاء فن ، لا يستطيع كل شاعر أن يبرز فيه ، لما يجب أن يكون في الشاعر من ذكاء وسرعة خاطر وقابلية على إسكات الخصوم . ولهذا كان يخشى جانب الهجاء فلا يتعرض له إلاّ من وهب قابلية على الهجاء . وإلا غلب على أمره ، وصار من المغلبين[4] ، وهو من أهم أبواب الشعر عند الجاهليين ، لما له من أثر في حياتهم ، حيث يغض من منزلة المهجو .

وذكر أن الشعراء كانوا ينازعون بعضهم بعضاً على التقدم في الشعر ، فذكر أن (امرأ القيس) نازع (الحارث بن التوأم) اليشكري ، فقال : إن كنت

---

١ ابن سلام ، طبقات (٢٦ وما بعدها) ، العمدة (١/١٠٤) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣٤) .
٣ العمدة (١/١٠٧) .
٤ العمدة (١/١١١ وما بعدها) .

شاعراً ، فأجز أنصاف ما أقول فأخذا يتسابقان في ذلك[1] . وذكر أن (عبيد بن الأبرص) الأسدي ، لقي (امرأ القيس) يوماً ، فقال له عبيد : كيف معرفتك بالأوابد ؟ فقال له : إلق ما شئت ، وأخذا يتسابقان . وكان آخر مـــا أجاب به (امرؤ القيس) هذا البيت :

تلك الموازين والرحمـــان أنزلها ربّ البرية بين الناس مقياسا[2]

وهو بيت مفضوح ، يحدثك عن أصله وفصله ، وعن هذه القصة ، وقـــد فات وضاع القصة أن هذا الشعر لا يمكن أن يقع من شاعر جاهلي ، لا سيما إذا كان على شاكلة امرىء القيس .

والأبيات الجيدة من الشعر ، في نظر نقدة الشعر هي الأبيات التي إذا سمعت صدر البيت فيها ، عرفت قافيته[3] .

بدء الشاعر :

يبدأ الشاعر بالشعر بعد إحساسه بوجود ميول له الى الشعر ، تدفعه دفعاً على الاقبال عليه ، فيبدأ بحفظ الشعر المقال ، وبنظمه ، ويكون هذا النظم نظمـــاً تجريبياً غير متقن في بادىء أمره ، ويقال لهذه المرحلة (الغرزمة) . و (الغرزمة) أن يقول الشاعر الشعر قبل أن يستحكم طبعه وتقوى قريحته[4] . فإذا قوي به وتمكن منه صار من الشعراء المجيدين .

وقد كان الشاعر الجاهلي مثل الشاعر الاسلامي ، يبدأ لكي يكون شاعراً بحفظ شعر غيره ، ولا سيما شعر المشهورين من الشعراء المتقدمين عليـــه ، حتى يرويه رواية ، وقد يتصل بشاعر يعجبه من شعراء قبيلته أو من غيرهم ، فيلازمه ويأخذ عنه شعره ، حتى يصير راوية له ، ومتى شعر هذا الراوية الحافظ لشعر غيره ، ان عوده قد استوى ، وأن له قابلية في النظم ، أظهر شعره للناس ، وربما بعد

---

١ الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (١٦ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (١٧ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١/١١٦) .
٤ الخزانة (١/٢٢٠) .

أن يكون قد وجد التشجيع ممن اتصل بهم من الشعراء ومن المتذوقة للشعر ، العارفين به ، ولما كانت الشاعرية موهبة يصقلها المران ومرور الزمن ، فإن كثيراً من الشعراء نظموا الشعر وهم صغار ، ولا سيما أولئك الذين نشأوا في بيت برز به شاعر ، أو في بيوت عرفت بنبوغ جماعة من أفرادها بنظم الشعر،فهناك بيوت معرقة توارثت الشعر أباً عن جد . وقد سبق أن ذكرت قول (رؤبة) : « الفحولة هم الرواة »[1] ، أي ان فحول الشعراء هم الذين كانوا في بادىء أمرهم رواة شعر .

فحفظ الشعر وروايته هو مران كان لا بد منه لتهيئة شاعر فحل . وقد وجدت هذه النظرة عند الفرس كذلك ، قال صاحب (چهار مقالة) : « ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلا أن يحفظ في عنفوان الشباب وريق العمر عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين ويديم القراءة في دواوين الأئمة ويلتقط منها ليعلم كيف تصرفوا في مضايق القول ودقائق الكلام حتى يرتسم في طبعه صور الشعر وطرائقه ، ويتجلى له مزايا الشعر ونقائصه، فيرتقي قوله ويعلو طبعه . فإذا رسخ طبعه في نظم الشعر ، وانقاد له الكلام عمد الى علم الشعر وقرأ العروض ... وقرأ نقد المعاني والألفاظ والسرقات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ يحذقها ليكون جديراً بالأستاذية »[2] . وهذا الرأي الفارسي الاسلامي ، يمثل ولا شك رأي قدماء الفرس كذلك .

ولم يكن الشاعر الجاهلي يعرف بالطبع هذه العلوم والقيود التي عرفت وشاعت في الإسلام ، بل لم يكن الشاعر العربي الإسلامي ليحفل بالعروض وبعلوم البيان والبديع ، لأن الشعر طبع وموهبة ، وإذا لم تكن الموهبة موجودة في إنسان، فلن يكون هذا الشخص شاعراً موهوباً مرموقاً مهما حفظ من الشعر ، وبلغ من علم العروض ومن علوم الصناعة الأخرى التي لها مساس بالشعر . فقد برز شعراء جاهليون قالوا شعراً وهم بعد أحداث ، واشتهروا به بين قومهم وهم بعد شباب. وطرفة الشاعر المشهور ، كان لا زال شاباً حين قتل ، ومع ذلك ، نجد ترتيبه بعد امرىء القيس في ترتيب المعلقات ، وفي ترتيبه هذا دلالة على تقدير قصيدته، واشتهار أمره بالشعر . وقد نظم (الخليل بن أحمد) شعراً ، وهو صاحب

---

١ البيان والتبيين (٢/٩ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (٤٨) .

العروض ، ونظم غيره من فحول هذا العلم ، ومن فحول اللغة شعراً ، لم يعد من عيون الشعر العربي ، ونظم الفقهاء شعراً عرف بين نقاد الشعر ، وأهل البصر به بـ (شعر الفقهاء) ازدراء به . بل نجد الشعراء الإسلاميين يهزأون من قواعد العروض .

ألقاب الشعراء :

ويذكر أهل الأخبار ويؤكدون ان أهل الجاهلية لقبوا شعراءهم بألقاب ،مثل: المهلهل ، والمرقش ، وذا القروح ، والمثقب ، والمنخل ، والمتنخل ، والأفوه، والنابغة . قيل عن المهلهل ، انه انما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره ، أي رقته وخفته، وقيل لاختلافه ، وقيل : بل سمي بذلك لقوله :

لما توقل في الكراع شريدهم هلهلت أثأر جابراً أو صنبلا

وقيل لأنه كان أول من هلهل الشعر وأرقه وألان ألفاظه[1] .

وذكر ان (المرقش) الأكبر ، انما عرف بذلك ، بقوله :

الدار قفر والرسوم كسما رقش في ظهر الأديم قلم

أو لأنه كان قد عني بتنميق شعره ورقشه[2] .

وروي ان لقب (المثقب) العبدي ، انما جاءه من قوله :

رددن تحية وكمن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون[3]

وعرف المتلمس بهذا الاسم بقوله :

فهذا أوان العرض حيّا ذبابه زنابيره والأزرق المتلمس[4]

---

١ العمدة (٨٦) ، (ويروي لماتوغر) و « لما توعر في الكلاب هجينهم » ، و (توعر) ، المزهر (٢/٤٣٤) ، الاغاني (٥/٥٧) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٣٨) ، تابع العروس (٤/٣١٤) ، (رقش) ، البيان والتبيين (١/٣٧٥) ، المفضليات (١/٤١٠ . ٤٨٥) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣١١) .
٤ الشعر والشعراء (١/١١٤) ، البيان والتبيين (١/٣٧٥) .

وعرف الممزق بهذا اللقب لقوله :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولمـا أمزق[1]

وعرف (النابغة) بالنابغة بقوله :

وحلت في بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شؤون[2]

وذكر أن (منبه بن سعد) ، إنما عرف بـ (أعصر) ، بقوله :

أعمير إن أباك غيّر لونـه مرّ الليالي واختلاف الأعصر

وان معاوية بن تميم ، إنما عرف بـ (الشقر) بقوله :

قد أحمل الرمح الأصم كُعوبُه به من دماء القوم كالشقرات[3]

وأن (خالد بن عمرو بن مرة) ، إنما قيل له (الشريد) ، بقوله :

وأنا الشريد لمـن يعرفـني حامي الحقيقة ما له مثل

وأن (صريم بن معشر) التغلبي ، إنما عرف بـ (أفنون) بقوله :

منّيتنا الودّ يا مضنون مضنونا أزماننـا إن للشبان أفنـونا[4]

وأن معاوية بن مالك ، سُمي معود الحكام لقوله :

أعوّد مثلهـا الحكّام بعدي إذا ما الأمر في الأشياع نابا[5]

وذكر (الجاحظ) ، أن (عمرو بن رياح) السلمي أبو خنساء ابنة عمرو ، غلب عليه الشريد ، لقوله :

تـولي إخوتي وبقيت فرداً وحيداً في ديارهم شريـدا[6]

---

١ الشعر والشعراء (١/٣١٤) ، البيان والتبيين (١/٣٧٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/٩٨) ، المزهر (٢/٤٣٢ ، ٤٣٦) .
٣ المزهر (٢/٤٣٤) .
٤ المزهر (٢/٤٣٥) .
٥ المزهر (٢/٤٣٦) .
٦ البيان والتبيين (١/٣٧٥) .

وعرف (خداش بن بشر) ، (خداش بن لبيد بن بيبة) ، (خداش بن بشر بن خالد بن بيبة) من بني مجاشع بالبعيث ، لقوله :

تبعث مني ما تبعثَ بعدما أمرت حبالي كل مرتها شزارا [1]

وذكروا ان (الفند) ، واسمه (شهل بن شيبان) ، انما سمي الفند ، لأنه قال يوم (قضة) : أما ترضون أن أكون لكم فِنـــداً . وأن طفيلاً الغنوى ، انما عرف بالمحبر ، لتحسينه الشعر [2] ، وأن علقمة بن عبدة ، انما لقب بالفحل، لأنه تزوج امرأة امرىء القيس ، بعد أن حكمت له بتفوقه على زوجها في الشعر أو لأنه كان في قومه علقمة آخر عرف بـ (علقمة) الخصي ، وان (الأعشى) انما عرف بصنّاجة العرب ، لكثرة ما تغنت العرب بشعره [3]،وأن عنترة انما لقب بالفلحاء لفلحة كانت به [4] .

وأما الأغربة من الشعراء ، فهم عنترة ، وخفاف بن ندبة السلمي ، وأبو عمير ابن الحباب السلمي ، وسليك بن السلكة ، وتأبط شراً ، والشنفرى ، وكلهم من الشعراء الجاهليين [5] .

الى آخر ما ذكروه من تعليلات عن أسباب تلقيب الشعراء الجاهليين بألقابهم التي عرفوا بها ، تجد بقيتها مدونة في كتب الأدب واللغة والأخبار [6] .

ولعلماء الشعر بعد ، آراء في أحسن وأجود ما قيل من شعر في فن واحد من فنون الشعر ، فقيل أرثى بيت قيل في الجاهلية ، قول أوس بن حجر :

أيتها النفس اجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

---

١ وقيل : سمى البعيث لقوله :
تبعث مني ما تبعث بعدما استمر فؤادي واستمر عزيمي
البيان والتبيين (١/٢٠٤ ، ٣٧٤) ، المؤتلف (٥٦) .
٢ المزهر (٢/٤٣٠) .
٣ المزهر (٢/٤٣١) .
٤ المزهر (٢/٤٣٢) .
٥ المزهر (٢/٤٣١) .
٦ المزهر (٢/٤٣٦ وما بعدها) .

وهذا على رأي الأصمعي[1] ، وقدم غيره قول عبدة :

فما كان قيسٌ هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدّمـا[2]

ومنهم من قدم شعر الخنساء[3] .

وقيل إن قول امرىء القيس في الماء ، هو أحسن ما قيل فيه[4] . وان وصف (أوس بن حجر) للسحاب ، هو أحسن ما قيل فيه[5] ، وان أهجى بيت قالته العرب ، قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[6]

وأن أمدح بيت قالته العرب قول زهير :

تراه إذا ما جئتـه متهلـلاً كأنك معطيه الذي أنت سائله

وبيت النابغة :

بأنك شمس والملوك كـواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[7]

ولكنك لو أطلت النظر في كتب الأدب ، تراها تختلف في هذا الاختيار وفي اسم الشاعر ، وسبب ذلك اختلاف أمزجة العلماء ، واختلاف وجهات نظرهم في نقد الشعر[8] .

وللعلماء كلام في أوصف الشعراء للدرع ، أو للفرس ، أو للنجوم والكواكب، أو للدنيا الى غير ذلك من أشياء[9]

---

١ ديوان أوس (١٣) ، المصون (١٦) .
٢ المصون (١٦) .
٣ المصون (١٧) .
٤ المصون (١٨) ، ديوان امرىء القيس (١١١) .
٥ المصون (١٩) .
٦ ديوان الاعشى (١٩) .
٧ « كأنك » ، (لانك) ، ديوان النابغة (١٣) ، المصون (٢١ وما بعدها) .
٨ راجع المصون (٢٢ وما بعدها) ، ترى العلماء يختلفون في أمدح بيت ورد في شعر الجاهليين .
٩ المصون (ص ٢٤ فما بعدها) .

وقد عرفت القصائد التي يكون الشاعر فيها منصفاً في شعره ، بالمنصفات ، والمنصفة هي القصيدة التي يكون الشاعر فيها قد أنصفَ من تحدث عنه ، فإذا كان في فخر واستعلاء على قوم ، فخر بقومه ، وذكر في الوقت نفسه فضائل خصوم قومه ، وشجاعتهم واستبسالهم في معاركهم مع قومه . ومن المنصفات قصيدة (العباس بن مرداس) السينية التي قالها في يوم (تثليث) ، حيث غزت (سُليم) مراداً ، فجمع لهم (عمرو بن معديكرب) ، فالتقوا بتثليث ، فصبر الفريقان ، ولم تظفر طائفة منهما بالأخرى ، فصنع العباس بن مرداس قصيدته المذكورة[1] .

وزعم علماء الشعر ، ان الشعراء الجاهليين كانوا في سرقة الشعر مثل الشعراء الاسلاميين ، فقد كان منهم من يسطو على شعر غيره ، فيدخله في شعره ، وينحله نفسه ، أو يضمن شعره من معانيه ، ولهم في ذلك بحوث . وذكروا ان من الشعراء الاسلاميين من سطا على شعر الشعراء الجاهليين ، أو أخذ منه[2] .

الشهرة بالشعر

يقول الرواة والعلماء بالشعر : من أراد الغريب فعليه بشعر هذيل ، ومن أراد النسيب والغزل من شعر العرب الصلب ، فعليه بأشعار عُذرة والأنصار ، ومن أراد طرف الشعر وما يحتاج الى مثله عند محاورة الناس وكلامهم فذلك في شعر الفرسان .

وأشعر الفرسان : دريد بن الصمة ، وعنترة ، وخفاف بن ندبة ، والزبرقان ابن بدر ، وعروة بن الورد ، ونهيكة بن إساف ، وقيس بن زهير ، وصخر ابن عمرو ، والسليك بن سلكة ، وأنس بن مدركة ، ومالك بن نويرة ، ويزيد ابن الصعق ، ويعدّ من الفرسان الأشراف ، ويزيد بن سنان بن أبي حارثة[3] .

---

١ العمدة (٢/٢١٧) .
٢ المصون (٦٦ وما بعدها) .
٣ المصون (١٧٣ وما بعدها) .

التكسب بالشعر

يذكر أهل الأخبار أن العرب كانت لا تتكسب بالشعر ، أنفة وتعززاً ، وإنما يصنع أحدهم ما يصنع مكافأة عن يد لا تستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها . بقوا على ذلك دهراً ، حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وقد كان أشرف بني ذبيـــان ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته ، وله مال يكفيه ، فسقطت منزلته ، وكسب مالاً جزيلاً حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيهما من عطايا الملوك . وذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر ما فيه قبح من مجاعلة الحاجب ومجاملتـــه والتودد اليه تقرباً وتزلفاً ليوصله الى النعمان ، ومن دس الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك[1] . هذا ، وإنما امتدح ملكاً، فكيف بشاعر يمدح من هم دون الملوك والأشراف من السوقـــة وسواد الناس ، طمعاً في صلة وعطاء[2] !

وتكسب زهير بن أبي سُلمى يسيراً مع (هرم بن سنان) ، ونال (أميـة ابن أبـي الصلت) عطايا (عبدالله بن جدعان) لمدحه اياه ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلاد ، وقصد حتى ملك العجم فأثابه ، لعلمـه بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه ، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له ، بل استخف به واستهجنه لكنه حذا حذو ملوك العرب[3] .

ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه ، حتى مقت وذل أهله ، واستصغر شأنه ، وعرف بتكسبه بشعره[4] .

وقد عيب « من تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة ، في قصائد السماطين »[5] . وانما المقبول ما جاء بما لا يزري بقدر ولا مروءة ، مثل الفلتة النادرة ، والمهمة العظيمـة ، وعن باب التودد والتلطف

---

١ بلوغ الارب (٣/٩٠ وما بعدها) ، العمدة (١/٨٠) .
٢ العمدة (١/٤٠ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٩١) ، العمدة (١/٨١) .
٤ العمدة (١/٨١) .
٥ البيان والتبيين (٢/١٣ وما بعدها) .

والتذكر ، فأما من وجود الكفاف والبلغة فلا وجه لسؤاله بالشعر[1] .

ومن هنا زعم أهل الأخبار ان أشراف أهل الجاهلية ، كانوا يأنفون من قول الشعر ، وكانوا ينهون أولادهم من قوله ، فلما خالف (امرؤ القيس) ، وهو شريف وابن ملك ، أمر والده من وجوب ترك الشعر ، واستمر على قوله ، طرده بسببه من بيته ، وأخرجه من داره ، فصار من الضلّيلين ، وهو زعم عارضه (ابن رشيق) وردّ عليه بقوله : « وقد غفل أكثر الناس عن السبب ، وذلك انه كان خليعاً ، متهتكاً ، شبب بنساء أبيه ، وبدأ بهذا الشر العظيم ، واشتغل بالخمر والزنا عن الملك والرياسة ، فكان اليه من أبيه ما كان ، ليس من جهة الشعر ، لكن من جهة الغي والبطالة ، فهذه العلة ، وقد جازت كثيراً من الناس ومرت عليهم صفحاً »[2] . فلم يكن طرد امرىء القيس من بيت أبيه اذن بسبب قوله الشعر ، وإصراره عليه ، وانما بسبب أعماله من خلاعة وتهتك واستهتار ، وهي أعمال تنافي أخلاق الأشراف .

وقد قيل في الشعر إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل ، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل . وإنه أسنى مروءة الدني ، وأدنى مروءة السري . وقيل ان الشريف كان يتحاشى قول الشعر ، ويمنع أولاده من قوله . لأن قول الشعر مثلبة للرجل الشريف . وقد فسر هذا الزعم بعض العلماء بقوله : « إن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مدح به ، مثل ما يضع من قدر الشريف إذا اتخذه مكسباً ، كالذي يؤثر من سقوط النابغة الذبياني بامتداحه النعمان بن المنذر ، وتكسبه عنده بالشعر ، وقد كان أشرف بني ذبيان ، هذا ، وانما امتدح قاهر العرب ، وصاحب البؤس والنعيم »[3] . مدحه ولم يكن في حاجة اليه ، وكان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك . وبين الشعراء الجاهليين من كان من السادة الأشراف ، ولم يجد مع ذلك غضاضة في قوله الشعر ،

---

١ بلوغ الارب (٣/٩١ وما بعدها) .

٢ العمدة (١/٤٣) .

٣ في قول « ابن رشيق » « وصاحب البؤس والنعيم » هفوة ، لان صاحب البؤس والنعيم ، هو « المنذر بن ماء السماء » ، وصاحب النابغة هو « النعمان بن المنذر » ، العمدة (١/٤١) ، البيان والتبيين (١/٢٤١) .

ومن غض من قدره ، هو من استجدى بشعره ، واتخذ شعره سبباً من أسباب التكسب .

وما يقوله أهل الأخبار عن التكسب بالشعر يمثل وجهة نظرهم حسب ، وهو رأي لا أساس له ، بسبب أن علمهم بالشعر لا يستند الى دليل جاهلي مكتوب، وإنما هو من رواية ولدت في الإسلام لاكتها الألسن ، وتناولتها الكتب ، حتى صارت في حكم الإجماع ، يردده الخلف عن السلف الى هذا اليوم . والشعراء في نظرنا قبل النابغة وبعده بشر ، فيهم المترفع وفيهم المستجدي الذليل ، الذي لا يبالي أن تمتهن كرامته في سبيل الحصول على مال . وإذا كان في هذا اليوم شعراء يمدحون ويذمون لغاية الكسب والحصول على مغنم ، فلم نجعل شعراء ما قبل أيام النابغة الذبياني ملائكة ، لا يمدحون إلا الشريف المستحق للمدح ، ولا يذمون إلا الحقير الذي يستحق الذم ، وما شعراء تلك الأيام ، إلا كشعراء أيام النابغة ، وما بعده ، فيهم الشاعر المترفع ، وفيهم الشاعر المترذل ، وفيهم من لا يبالي بشعره ، يمدح اليوم هذا ، ثم لا يبالي من ذمه بعد حين . وفي حقهم جميعاً جاء في القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون »[1] ، ونحن نظلم (النابغة) ان جعلناه أول المتكسبين بالشعر ، ونخرج عن المنطق ان ذهبنا هذا المذهب .

وذكر ان ممن رفعه الشعر من القدماء : (الحارث بن حلزة) اليشكري ، وكان أبرص ، فلما أنشد الملك (عمرو بن هند) قصيدته :

آذنتنا ببينها أسماء رُبَّ ثاوٍ يملّ منه الثواء

وبينه وبينه سبعة حجب ، فما زال يرفعها حجاباً فحجاباً لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينها حجاب ، ثم أدناه وقربه . وأمثاله ممن رفع من قدرهم الشعر كثير[2] .

ورووا ان المحلق كان ممن رفعه الشعر بعد الخمول،وذلك ان الأعشى قدم مكة

---

١ سورة الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .

٢ العمدة (١/٤٣ وما بعدها) .

وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، وقيل بل أم ، وكان المحلق فقيراً خامل الذكر ، ذا بنات ، فأشارت عليه ، أن يكون أسبق الناس اليه في دعوته الى الضيافة ، ليمدحهم ، ففعل ، فلما أكل الأعشى وشرب ، وأخذت منه الكأس ، عرف منه انه فقير الحال ، وانه ذا عيال ، فلما ذهب الأعشى الى عكاظ أنشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشق

ثم مدح المحلق ، فما أتم القصيدة إلا والنـاس ينسلون الى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه جرياً يخطبون بناته ، لمكان شعر الأعشى[1].

هذا ما يرويه أهل الأخبار عن أثر الشعر في الناس . وروي أن الأعشى أنشد قصيدته المذكورة (كسرى) ، فقال : « إن كان سهر من غير سقمٍ ولا عشق فهو لص »[2] .

« قال أبو عمرو بن العلاء : كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يُقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » « ولقد وضع قولُ الشعر من قدر النابغة الذبياني ، ولو كان في الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة البيان »[3] .

ويذكر الرواة أن القبيلة كانت إذا نبغ فيهـا شاعر احتفلت به ، وفرحت بنبوغه ، وأتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر ، وتباشروا به لأنه حماية لهم ، ولسانهم الذاب عنهم المدافع عن أعراضهم وأحسابهم وشرفهم بين الناس . وكانوا لا يهنأون إلا بغلام يولد أو فرس تُنتج

---

١ العمدة (١/٤٩) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٨٠) .

٣ البيان والتبيين (١/٢٤١) ، العمدة (١/٨٢ وما بعدها) .

أو شاعر ينبغ فيهم[1] . فالشاعر هو صحيفة القبيلة و (محطة إذاعتها) ، وصوته يحط ويرفع ويخلد لا سيما إذا كان مؤثراً ، فيرويه الناس جيلاً بعد جيل .

وكان أثره في الناس أثر السيف في الحروب ، بل استخدمه المحاربون أول سلاح في المعارك . فيبدأ الفارس بالرجز ، ثم يعمد الى السيف أو الرمح أو آلات القتال الأخرى . ولأثره هذا ، ورد في الحديث عن الرسول قوله : « والذي نفسي بيده ، لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر »[2] مخاطباً بذلك شعراء المسلمين ، الذين حاربوا الوثنيين بهذا السلاح الفتاك ، سلاح الشعر . وقد كان الوثنيون قد أشهروه أيضاً وحاربوا به المسلمين .

وطالما قام الشعراء بدور السفارة والوساطة في النزاع الذي كان يقع بين الملوك وبين القبائل ، أو بين القبائل والقبائل ، فلما أسر (الحارث بن أبي شمر) الغساني (شأس بن عبدة) في تسعين رجلاً من (بني تميم) ، وبلغ ذلك أخاه (علقمة بن عبدة) ، قصد (الحارث) ، فمدحه بقصيدته :

طحا بك قلبٌ بالحسان طروب بُعيد الشباب عصر حان مشيب

فلما بلغ طلبه بالعفو عن أخيه وعن بقية المأسورين ، قال الحارث : نعم وأذنبة ، وأطلق له شأساً أخاه ، وجماعة أسرى بني تميم ، ومن سأل فيه أو عرفه من غيرهم[3] .

ولم يقلّ أثر الشاعر في السلم وفي الحرب عن أثر الفارس ، الشاعر يدافع عن قومه بلسانه ، يهاجم خصومهم ويهجو سادتهم ، ويحث المحاربين على الاستماتة في القتال ، ويبعث فيهم الشهامة والنخوة للإقدام على الموت حتى النصر ، والفارس يدافع عن قومه بسيفه ، وكلاهما ذاب عنهم محارب في النتيجة . بل قد يقدم الشاعر على الفارس ، لما يتركه الشعر من أثر دائم في نفوس العرب، يبقى محفوظاً في الذاكرة وفي اللسان ، يرويه الخلف عن السلف ، بينما يذهب أثر السيف ،

---

١ بلوغ الارب (٨٤/٣) ، العمدة ، (٤٩/١ ، ٦٥) ، المزهر (٢٣٦/٣) ، العقد الفريد (٩٣/٣) .

٢ الاغاني (٢٦/١٥) .

٣ العمدة (٥٧/١) ، (أسرة الحارث بن أبي شمر الغساني مع سبعين رجلا من بني تميم) ، الشعر والشعراء (١٤٧/١ وما بعدها) .

بذهاب فعله في المعركة ، فلا يترك ما يتركه شعر المديح أو الهجاء من أثر في النفوس ، يهيجها حين يذكر ، وكان من أثره ان القبائل كانت اذا تحاربت جاءت بشعرائها ، لتستعين بهم في القتال . فلما كان يوم (أحد) ، قال (صفوان ابن أمية) لأبي عزة عمرو بن عبد الله الجمحي : « يا أبا عزة انك امرؤ شاعر فأعنّا بلسانك ، فاخرج معنا . فقال : إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه . قال : فاعنا بنفسك فلك الله علي إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو بني كنانة » شعراً الى السير مع قريش لمحاربة المسلمين[1] .

وكان للرسول شاعره (حسان بن ثابت) يدافع عن الإسلام والمسلمين ، وكان للمشركين من أهل مكة شاعرهم (عبدالله بن الزبعرى) يرد عليه ويهاجم المسلمين في السلم وفي المعارك ، وقد دوّنت كتب السير والأخبار والتواريخ أشعارهم وما قاله أحدهم في الآخر ، وقد فات منه شيء كثير ، نص رواة الشعر على أنهم تركوه لما كان فيه من سوء أدب وخروج على المروءة. وكان الى جانب الشاعرين شعراء آخرون ، منهم من ناصر المسلمين لأنه كان منهم ، ومنهم من ناصر المشركين لأنه كان منهم . بل كان المحاربون إذا حاربوا ، فلا بد وأن يبدأوا حربهم بتنشيطها وبتصعيد نارها برجز أو بقريض .

ومن خوفهم من لسان الشاعر ، ما روي من فزع (أبو سفيان) ، لما سمع من عزم (الأعشى) على الذهاب الى يثرب ومن اعداده شعراً في مدح الرسول ، ومن رغبته في الدخول في الإسلام . فجمع قومه عندئذ ، وتكلم فيما سيتركه شعر هذا الشاعر من أثر في الاسلام وفي قريش خاصة إن هو أسلم ، ولهذا نصحهم أن يتعاونوا معه في شراء لسانه وفي منعه من الدخول في الإسلام بإعطائه مائة ناقة فوافقوا على رأيه وجمعوا له ما طلبه ، وتمكن أبو سفيان من التأثير عليه ، فعاد الى بلده (منفوحة) ومات بها دون أن يسلم[2] .

قال (الجاحظ) : « ويبلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السبّ عليهم ، وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب ، ويسبّ به الأحياء والأموات ، انهم

---

١ الروض الانف (٢/١٢٦ وما بعدها) ، (غزوة أحد) .
٢ الشعر والشعراء (١٣٦ وما بعدها) ، زيدان ، آداب (١/١١٩) .

اذا أسَروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ، وربما شدوا لسانه بنسعة ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقّاص الحارثي حين أسرته بنو تيم يوم الكلاب[1] . و (عبد يغوث ابن وقاص) شاعر قحطاني ، كان شاعراً من شعراء الجاهلية ، فارساً سيد قومه من (بني الحارث بن كعب) ، وهو الذي قادهم يوم الكـــلاب الثاني فأسرته بنو تيم وقتلته . وهو من أهل بيت شعر معروف في الجاهلية والاسلام ، منهـــم (اللجلاج) الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه (مسهر) فارس شاعر ، ومنهم من أدرك الاسلام : (جعفر بن علية بن ربيعة بن الحارث ابن عبد يغوث) ، وكان شاعراً صعلوكاً[2] .

ولما مدح (الحطيئة) (بغيض بن عامر بن لاي بن شماس بن لاي بن أنف الناقة) ، واسمه (جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم) ، وهجا (الزبرقان) ، واسمه (الحصين بن بـدر بن امرىء القيس بن خلف بن عوف بن كعب) ، صاروا يفخرون ويتباهون بأن يقـال لهم (أنف الناقة) ، وكانوا يعيرون به ويغضبون منه ، ويفرقون من هذا الاسم ، حتى ان الرجل منهم كان يسأل ممن هو فيقول من (بني قريـــع) فيتجاوز جعفراً أنف الناقة ، ويلغي ذكره فراراً من هذا اللقب ، الى أن قال (الحطيئة) هذا الشعر فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة ، إذ قال :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يُسوّي بأنف الناقة الذنبا[3]

وقد تعزز الأعشى على قومه ، وبين مكان فضله عليهم ، إذْ كـان لسانهم الذاب عنهم المدافع عن أعراضهم ، الهاجي لأعدائهم بشعر هو كالمقراض يقرض أعداء قومه قرضاً .

وادفع عن أعراضكم وأعـــيركم لساناً كمقراض الخفاجي ملحبا[4]

---

١ البيان والتبيين (٤/٤٥) .
٢ الخزانة (١/٣١٧) ، (بولاق) .
٣ قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا
البيان والتبيين (٤/٣٨) ، (هارون) ، الاشتقاق (١٥٦) ، زهر الاداب (١/١٩)، الخزانة (١/٥٦٧) ، العمدة (١/٥٠) .
٤ ديوان الاعشى (١١٧) ، القصيدة ١٤ ، البيت ٣١ .

وذكر أن (بني تغلب) كانوا يعظمون معلقة (عمرو بن كلثوم) ويروونها صغاراً وكباراً ، حتى هجاهم شاعر من شعراء خصومهم ومنافسيهم : بكر بن وائل ، إذ قال :

ألهى بني تغلب عن كلّ مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مُذْ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم[1]

ولسلاطة ألسنة بعض الشعراء ، ولعدم تورع بعضهم من شتم الناس ومن هتك الأعراض ، ومن التكلم عنهم بالباطل ، تجنب الناس قدر امكانهم الإحتكاك بهم ، وملاحاتهم والتحرش في أمورهم ، خوفاً من كلمة فاحشة قد تصدر منهم ، تجرح الشخص الشريف فتدميه ، و « جُرْح اللسان كجرح اليد » ، كما عبر عن ذلك (امرؤ القيس) أحسن تعبير[2] . ولأمر ما قال طرفة :

رأيت القوافي تتلجن موالجاً تَضَايَقُ عنها أن تَوَلجها الإبر

وفي هذا المعنى دوّن (الجاحظ) هذه الأبيات :

وللشعراء ألسنةٌ حدادٌ على العورات موفية دليله
ومن عقل الكريم اذا اتقاهم وداراهم مداراةٌ جميله
اذا وضعوا مكاويهم عليه ـ وإن كذبوا ـ فليس لهنّ حيله[3]

و « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عالماً بالشعر ، قليل التعرض لأهله : استعداه رهط تميم بن أبي مقبل على النجاشي لما هجاهم ، فأسلم النظر في أمرهم الى حسان بن ثابت ، فراراً من التعرض لأحدهما ، فلما حكم حسان أنفذ عمر حكمه على النجاشي كالمقلد من جهة الصناعة ، ولم يكن حسان ـ على علمه بالشعر ـ أبصر من عمر رضي الله عنه بوجه الحكم ، وان اعتل فيه بما اعتل »[4].

---

١ الاغاني (١١/٥٤) ، الاشتقاق (٢٠٤) ، وقد روى هذا الشعر بأوجه مختلفة ، البيان والتبيين (٤/٤١) .
٢ العمدة (١/٧٨) .
٣ العمدة (١/٧٨) .
٤ العمدة (١/٥٢ ، ٧٦) ، (باب تعرض الشعراء) .

« وكذلك صنع في هجاء الحطيئة الزبرقان بن بدر : سأل حسان ، ثم قضى على الحطيئة بالسجن »[1] ، وقد كان عمر قد كره أن يتعرض للشعراء ، فاستشهد حساناً ، فلما بيّن حسان رأيه في الشعر ، انفذ حكمه ، فتخلص (عمر) بعرضه سليماً[2] .

و (تميم بن مقبل بن عوف بن حنيف) العجلاني ، من الشعراء الذين أدركوا الاسلام فأسلم ، وكان يهاجي (النجاشي) ، فهجاه (النجاشي) يوماً ، فاستعدى (تميم) (عمر) عليه . فلما قرأ (النجاشي) على (عمر) ما قاله في (تميم) أمر بضربه وحبسه . وكان يبكي أهل الجاهلية[3] .

« وسئل أبو عبيدة : أي الرجلين أشعر : أبو نُواس ، أم ابن أبي عيينة؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ، فقيل له : سبحان الله كأن هذا ما تبين لك ! فقال : أنا ممن لم يتبين له هذا ؟! »[4] وذلك خوفاً ولا شك من لسان الشاعر الحي . « ولسير الشعر على الأفواه هذا المسير تجنب الأشرافُ ممازحة الشاعر خوف لفظة تسمع منه مزحاً فتعود جداً »[5]

وكانوا يهابون الشاعر الهجّاء البذيء اللسان المتمكن من شعر الهجاء ، أكثر من غيره من بقية الشعراء ، لما كان يتركه هجاؤه من أثر فيهم ، حتى الشعراء البارزون كانوا يتقون شر الشاعر الهجاء ويبتعدون عنهم . فلما هجا (عبدالله بن الزبعرى) ، بني قصيّ ، خاف قومه من هجاء (الزبير بن عبد المطلب) ، فرفعوه برمته الى (عتبة بن ربيعة) ، فلما وصل اليهم أطلقه (حمزة بن عبد المطلب) وكساه ، وكان (الزبير) غائباً بالطائف ، فلما وصل مكة وبلغه الخبر هجا قوم (ابن الزبعرى) هجاء مرّاً[6] ، يقوله :

فلولا نحن لم يلبس رجال ثيابَ أعزة حتى يموتوا

---

١ العمدة (١/٧٦) ، ابن سلام ، طبقات (٢٥) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٤٠) .
٣ الاصابة (١/١٨٩) ، (رقم ٨٦٢) ، البيان (١/٢٣٩) ، الخزانة (١/١١٣) .
٤ العمدة (١/٧٦) .
٥ العمدة (١/٧٧) .
٦ العمدة (١/٦٥ وما بعدها) .

ثيابهم سمالٌ أو طمارٌ بها دسم كما دسم الحميت
ولكنّا خلقنا إذ خلقنا لنا الخبرات والمسك الفتيت

وكان عبدالله بن الزبعرى قد قال حين أطلقه حمزة :

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فودّ جناة الشرّ أن سيوفنا بأيماننا مسلولة لا نشيمها
فإن قصيّاً أهل عزّ ونجدة وأهل فعالٍ لا يرام قديمها
هُمُ منعوا يومي عُكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها[1]

ونظراً لأثر شعر الهجاء في الناس ، من أفراد وقبائل ، صاروا يصطنعون الشعراء ويحسنون جهدهم اليهم خشية ألسنتهم ، يفعلون ذلك بشعرائهم وبشعراء القبائل الأخرى ممن يخشون سلاطة ألسنتهم . يفعلون ذلك حتى اذا كان الشاعر قد أساء اليهم ، على أمل التكفير عن ذنبه ، بمدحهم بشعر ينفي أثر ما قاله فيهم من هجاء . حتى انهم كانوا يعفون عن شاعر قد يقع أسيراً في أيديهم ، اذا أعطاهم العهود والمواثيق ألا يعود الى هجوهم ، وألا يقول شعراً في ذمهم . وقد يغدقون عليه بالهدايا والألطاف تأليفاً للسانه ، وأملاً في مدحه لهم ، والقاعدة عندهم ان أثر الهجاء يمحوه المدح .

وبين الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي فروق واضحة في الأسلوب وفي الاتجاه وفي الجزالة واختيار الكلمات ، اقتضتها طبيعة اختلاف الزمان وتغير الحال واتصال العرب بغيرهم ، وخلود أكثرهم الى الحضارة ، الى غير ذلك من أسباب .

ومما امتاز فيه الشعر الجاهلي عن الشعر الاسلامي ، هو أن شعراءه كانوا من العرب ، إلا بضعة شعراء ، كانوا من أصل خليط ، مثل الأغربة ، الذين كانت أمهاتهم من أصل افريقي . ولا أعلم اسم شاعر جاهلي ، يرجع أصله الى فارس أو الروم ، إلا ما ذكره (ابن الكلبي) من أمر (خرخسرة) . أما في الاسلام فقد زاحم الفرس بصورة خاصة العرب على تراثهم التليد ، وهو الشعر ، برّز منهم فيه فحول ، طوروا الشعر ولوّنوه ، وأضافوا اليه معاني جديدة ، اقتضتها

---

١ بلوغ الارب (٣/٨٤ وما بعدها) .

طبيعة الامتزاج بين العقليتين والتطور الاجتماعي الجديد الذي ظهر في المجتمع الجديد، مجتمع العرب والموالي .

ولعلماء الشعر آراء في الشعر الجاهلي وفي شعراء الجاهليـــة ، وفي شعرهم وفي الاستشهاد بالشعر الجاهلي . ولهم آراء في ذلك دوّنوها في كتبهم . من ذلك أن للعرب كانت لا تروي شعر شاعر ، أو لا تعجب به إذا كانت ألفاظـه ليست نجدية . ذكروا أن « العرب لا تروي شعر أبـي دواد وعدي بن زيـد . وذلك لأن ألفاظهما ليست بنجدية »[1] . وذكروا عن شعر (عدي بن زيد العبادي)، أن « العرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية . وكان نصرانياً من عباد الحيرة قد قرأ الكتب »[2] . وقالوا عنه أيضاً « وكان يسكن بالحيرة ، ويدخـل الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة »[3] .

وجزالة الألفاظ وشدة وقعها على الأسماع وغرابتها ، هي من أهم المعايير التي اتخذها علماء الشعر في تقدير قيم الشعر الجاهلي، والقصيدة الجيدة الحسنة هي القصيدة الجزلة الفخمة الألفاظ التي لا تتسم بالسهولة والليونة ، والتي لا تفهم إلا بالرجوع الى الشروح والتعليقات والايماءات والإشارات . ومن هنا فوّقـوا شعر الأعراب على شعر الحضر ، لوجود لين في شعر أهل المدر ، ولسهولته ، ومن هنا قالوا: إن في شعر قريش ليناً وسهولة ، وفي شعر أهل الحيرة وأهل القرى مثل ذلك .

وقد تعرض (ابن رشيق) لموضوع الشعر الجاهلي القـديم والشعر الإسلامي المحدث ، فقال : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رَجُلين ابتدأا هـذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن »[4] .

الخمر والشعر :

وقد كان الشعراء يقبلون على شرب الخمر ، إقبال أكثر الجاهليين على شربها

---

١ الشعر والشعراء (١٢١) .
٢ الشعر والشعراء (١١٥) ، الاغاني (٩٣/١٥) .
٣ الشعر والشعراء (١١١) .
٤ العمدة (٥٧/١) .

لتنسيهم همومهم وفقرهم ، حتى أن منهم من كان يبيع ما عنده ليشتري الخمر . وقد كان الشعراء يشربون ليستوحوا الوحي من الشرب ، حتى ان الأعشى لما قدم ليسلم ، فقيل له ان الاسلام يحرم الخمر ، توقف ، ولم يسلم ، إذ شق عليه هذا التحريم ، ولم يتمكن بعضهم من تركها ، فحدّوا على شربها . وقد هرب (ربيعة بن أمية بن خلف) الجحمي ، من بلاد الاسلام ولحق بالروم ، لأن عمر جلده الحدّ في الخمر ، وكان من آنف العرب وأسخاهم ، فحلف أن لا يقيم بأرض حد فيها ولا يدين من حده ، فحمله الأنف الى أن أتى الروم فمات بها نصرانياً[1] . ويروى انه قال :

لحقت بأرض الروم غير مفكر بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركوني من صبوح مدامة فما حرم الله السلاف من الخمر
اذا أمرت تيم بن مرة فيكم فلا خير في أرض الحجاز ولا مصر
فإن يك اسلامي هو الحق والهدى فإني قد خلّيته لأبي بكر

ويذكر (المعري) انه قد جرى له مع (أبي بكر) خطب ، فلحق بالروم[2].

شيطان الشاعر :

ولا بد لي هنا من أن أشير الى ما كان يعتقده الجاهليون من أن الشعراء كانوا يستلهمون وحيهم بالشعر من (شيطان) ، كنّوا عنه بـ (شيطان الشاعر) . فقالوا : « لكل شاعر شيطان » . وهم يعبرون بذلك عن الحس الذي يصيب كل انسان حساس شاعر عندما يهز مشاعره وإحساسه شيء ما يؤثر عليه فيستولي على عقله وشعوره ويستهويه ، ولا يتركه يستقر ويهجع حتى يعبر عن شعوره هذا الذي سيطر عليه وملكه ، بشعر يأتيه وكأنه وحي ينزل عليه تنزيلاً ، وعندئذ فقط يستقر ويهجع ، بعد أن يكون قد نسب هذا الشعور المرهف الذي ألمّ به الى وحي (شياطين الشعر) .

---

١ الاشتقاق (٨٠ وما بعدها) ، الاغاني (١١٢/١٣) .
٢ رسالة الغفران (٤٤٠ وما بعدها) .

وكان الكهناء ، يقولون في الجاهلية : إن الشياطين كانت تأتيهم[1] ، فهم مثل الشعراء يعتقدون بأن وحياً يوحى اليهم بما يقولونه للناس ، يتجلى لهم على صورة (رئي) ، الرئي يقول سجعاً ، والشيطان ينظم شعراً .

وقد بلغ من اعتقاد بعضهم بوجود (شياطين الشاعر) أن رووا قصصاً تذكر كيف أن (شياطين الشعر) كانوا يعلمون الشعراء قول الشعر حين ينحبس الشعر عنهم وحين تقف قريحتهم حتى ليصعب على الشاعر أن ينظم بيتاً واحداً ، حتى إذا حار في أمره ، استجار بشيطانه وتوسل اليه لإنقاذه من محنته ، فيرق شيطانه عليه ، ويلقي عليه الشعر إلقاء فيأتي على لسان الشاعر وكأنه سيل متدفق . ولاعتقاد الشعراء هذا بوجود قرين لهم من الشياطين،أو من الجن ، سموا شياطينهم بأسماء ، فكان اسم شيطان الأعشى (مسحلاً) ، وقيل هو تابعه وجنّيه الذي كان يوحي اليه بالشعر . كما أشار هو اليه في شعره :

دعوت خليلي مسحلاً ، ودعوا له جهنام ، جدعاً للهجين المذمّم[2]

وللأعشى أشعار أخرى ذكر فيها فضل شيطانه عليه في قول الشعر . من ذلك قوله :

وما كنت ذا قولٍ ولكن حسبتني إذا مسحل يبري لي القول أنطق
خليلان فيما بيننا من مودةٍ شريكان جنّيٌ وإنس موفق[3]

وجنّيه هو الذي حباه بموهبة الشعر ، وبفيض الخواطر ، ينظمه كلاماً محبوكاً، فهو يشكره ويفديه بنفسه :

حباني أخي الجنّيّ نفسي فداؤه بأفيح جيّاش العشيّات مرجم[4]

واسم هاجس الأعشى وشيطانه (مسحل بن أوثالة) ، وكان هو الذي يلقي الشعر على لسان الأعشى . وقد رآه (الأعشى) ودخل خباءه وهو من شَعَر ،

---

١ مجالس ثعلب (٢٠) .
٢ اللسان (١١/٣٣١) ، ثمار القلوب (٧٠) ، (جهنام جدعا) الحيوان (٦/٢٢٦) .
٣ ثمار القلوب (٧٠) .
٤ ثمار القلوب (٧٠) ، الحيوان (٦/٢٢٦) .

وكان الأعشى في أول أرض اليمن يريد الذهاب الى (قيس بن معدي كرب) بحضرموت . فضل طريقه ، فأبصر هذا الخباء ، فذهب اليه ، وسأله الشيخ أن ينشده شعراً ، فكان اذا تلا عليه مطلع القصيدة أوقفه ، واستدعى جارية من جواريه لتتلو عليه بقية القصيدة ، حتى سقط في يدي الأعشى وتحير ، واغتشته رعدة ، فلما رأى الشيخ ما حل به ، قال : « ليفرج روعك أبا بصير ، انا هاجسك مسحل بن أوثاثة الذي ألقى على لسانك الشعر » . ثم ودعه وأرشده الطريق[1] .

وكان للأعشى شيطان ، اسمه (جهنّام) ، وهو تابعة ، أي شيطانة أنثى . وكان لقب (عمرو بن قطن) من (بني سعد بن قيس بن ثعلبة) ، وكان يهاجي الأعشى ، وقال فيه الأعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنام جدعاً للهجين المذلل[2]

وقيل إن (جهنام) كان شيطان الأعشى الأول ، ثم اتخذ الأعشى مسحلاً بعده[3] .

وزعم ان (امرىء القيس) كانت له قصائد ومطارحات مع (عمرو الجني). وان اسم شيطان (امرىء القيس) هو (لافظ بن لاحظ) . وان اسم شيطان (عبيد بن الأبرص) هو (هبيد) ، وهو اسم شيطان (بشير بن أبي خازم ؟) (بشر بن أبي خازم) كذلك . وان اسم شيطان (النابغة) الذبياني ، هو (هاذر بن ماهر) . وان اسم شيطان (المخبل) السعدي ، هو (عمرو)[4] .

وقد بقي هذا الاعتقاد في شياطين الشعراء الى الإسلام ، فكان الشيطان الذي يلقي الشعر الى (جرير) ، هو (ابليس الأباليس) ، وكان اسم شيطان الفرزدق (عمرو) ، واسم شيطان بشار بن برد (شنقناق) . وكان جني (حسان) وصاحبه الذي يوحي اليه الشعر من (بني شيصبان) ، « وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر ، وتلقّنها إياه ، وتعينها عليه ، وتدعي أن

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٦٨ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٢٣٥) ، (جهنام) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥٠) .
٤ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥١) ، الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (٨) .

لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود »[1] ، وورد أن (الفرزدق) كان يرى أن للشعر شيطانين ، يدعى أحدهما (الهوبر) والآخر (الهوجل) ، فمن انفرد به (الهوبر) جاد شعره وصح كلامه ، ومن انفرد به (الهوجل) فسد شعره[2] .

وقد زعم (أبو النجم) أن شيطانه الذي يوحي اليه الشعر شيطان ذكر ، أما شياطين بقية الشعراء فأناث :

إني وكلّ شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
فما يراني شاعر إلا استتر فعلَ نجوم الليل عينٌ القمر[3]

وقال آخر :

إنّي وإن كنتُ صغير السنّ وكان في العين نبوّ عني
فإن شيطاني أميرُ الجنّ يذهبُ بي في الشعر كلّ فنّ[4]

وروي ان السعلاة لقيت (حسان بن ثابت) في بعض طرقات المدينة ، وهو غلام قبل أن يقول الشعر ، فبركت على صدره ، وقالت أنت الذي يرجو قومك أن تكون شاعرهم ؟ قال : نعم . قالت : فأنشدني ثلاثة أبيات على روي واحد وإلا قتلتك ، فقال :

اذا ما ترعرع فينا الغلام فما أن يقال له من هوه
اذا لم يسد قبل شد الازار فذلك فينا الذي لاهوه
ولي صاحب من بني الشيصبان فحيناً أقول وحيناً هوه[5]

فخلت سبيله . فهذه الأبيات هي على زعم أهل الأخبار أول شعر حسان . قالها بوحي من شيطانه : (الشيصبان) .

---

١ ثمار القلوب (٦٩ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥١) .
٣ الحيوان (٦/٢٢٩) ، ثمار القلوب (٧١) ، ديوان المعاني (١/١١٣) ، الراغب ، محاضرات (١/٢٨٠) .
٤ ثمار القلوب (٧٢) . الخصائص (١/٢٢٥) .
٥ الخزانة (١/٤١٨ وما بعدها) ، (بولاق) .

وليس هذا الشيطان الذي تصوره الجاهليون ، يلهم الشعراء وحيهم ويلقي اليهم الشعر إلقاء بقذفه في قلوبهم ، ليخرج على ألسنتهم ، هو من وحي الجاهليين ومن تخيلاتهم وتخرصاتهم وحدهم ، بل هو شيء معروف عند غيرهم أيضاً . فقد تصور اليونان أن للشعر آلهة تقذف الشعر في نفوس الشعراء ، فينطلق على ألسنتهم[1]. والرئي الذي يوحي الى (الكاهن) علمه بالكهانة ، هو ضرب من هذه الشياطين التي تخيلوها للشعراء ، فبفضل (الرئي) يقول الكاهن سجعه لمن يطلب منه أن يتكهن عن أمر سأله عنه ، وهو يجيب السائل بما يلقيه رئيه عليه . يلقيه سجعاً، أما شيطان الشاعر ، فيلقيه على شاعره شعراً ، ومن هنا وقع الفرق بين قول الشاعر وبين قول الكاهن .

وكانوا يسمون الشعراء (كلاب الحي) ، وهم الذين ينبحون دونهم، ويحمون أعراضهم . وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

وقد هرّت كلاب الحيّ منّا وشذبنا قتادة من يلينا[2]

وأما (كلاب الجن) ، فشعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم[3] .

---

١ B. Snell, Die Entdeckung des Geistes, Hamburg, 1946, S. 117. ff.

٢ الحيوان (١/٣٥٠) .

٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥٢) .